

مكتبة الأسرة



مهرجان القراءة للجميع

سيد حميس

القصص الديني

بين التراث والتاريخ



الأعمال الخاصة



الهيئة العامة
للكتاب

**القصص الديني
بين التراث والتاريخ**

القصص الديني بين التراث والتاريخ

سيد خميس



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

القسم الديني بين التراث والتاريخ

سيد خميس

الغلاف

والإشراف الفني:

الفنان : محمود الهندي

المشرف العام :

د. سمير سرحان

طبعة خاصة من ميريت للنشر والمطبوعات لمكتبة الأسرة ٢٠٠١

(١)

العودة للتراث.. لماذا؟

عرف العرب منذ القدم مفهوم "التراث" بجانبيه، أو وجهيه:
 المادى والروحي. واستخدموا كلمة الإرث والميراث فيما
 يتصل بالجانب الثقافى والروحي.

وإن كان القرآن الكريم قد استخدم كلمة التراث فى الإشارة
 إلى ما تركه السلف للخلف من موروث مادى أو معنوى، مثل
 قوله تعالى: "وتأكلون التراث لكلا لمتا" ومثل قوله تعالى على
 لسان النبى زكريا: "هب لى من لدنك وليا يرثنى ويرث من
 آل يعقوب" ويفسر لسان العرب الآية بأن النبى زكريا أراد أن
 يهب له الله من يرثه، ويرث النبوة من آل يعقوب. ويقول النبى
 عليه الصلاة والسلام: "نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما
 تركناه فهو صدقة". ويروى أن أبا هريرة قال لبعض
 الصحابة: أنتم هنا وميراث محمد يوزع فى المسجد، ولم يكن
 فى المسجد إلا جماعة تقرأ القرآن وتذكر الله، فكأنه أراد من
 هؤلاء الصحابة المشاركة فى الميراث الذى أوحى إلى النبى.

ويستخدم الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم كلمة التراث
 بدلا لثأر المصنوعة فى معلقة الشهيرة، مشيرا إلى وراثة المجد
 والمفاخر والمناقب العظيمة التى يعتر بها العرب، يقول:

ورثنا مجد علقمة بن سيف أباح لنا حصون المجد دينا
 ورثت مهلهلا والخير منه زهير نعم نحر الذاهيرينا

وعتبا وكثرتوما جميعا بهم ثلثا تراث الأكرمين
ويرى الدكتور أكرم المصري في كتابه "التراث والمعاصرة"
أن التراث الإسلامي هو كل ما ورثناه عن أباينا من عقيدة
وثقافة وقيم وأداب وفنون وصناعات، ومسائر المنجزات
الأخرى المعنوية والمادية، بما فيها الوحي الإلهي (القرآن
والسنة) الذي ورثناه عن أسلافنا.. ولكنه يميز التعامل مع
الوحي الإلهي عن التعامل مع باقي مفردات التراث الأخرى،
في عدم قبول الوحي الإلهي للانتقاء أو الاختيار، أو التطويع
للتوقع، وطرائق التفكير، لتوظيفه في تحقيق مصالح عامة أو
خاصة، فالوحي الإلهي إطار بحكم الحياة، ولكنه يدعها تتطور
داخله، فإذا انفلتت خارجه فقد وقع انحراف لابد من تقيمه
() وأما المنجزات البشرية الحضارية والثقافية فإنها قابلة
لانتخاب والتوظيف، وفق الرؤية المعاصرة وحسب الحالة
والمصلحة.

والتراث العربي أوسع زمنيا من التراث الإسلامي، فهو
يضم جذوره إلى تراث الحضارات القديمة في منطقة
الشرق الأدنى، وإلى تراث العرب قبل الإسلام بقرون طويلة.
ولكن التراث الإسلامي أعمق وأغنى وأوسع جغرافيا من
التراث العربي، فهو يضم إلى جانب تراث العرب تراث
الشعوب الأخرى التي دخلت الإسلام كالفرس والهنود والمغول
والمصريين والعراقيين وشعوب شمال أفريقيا إلخ. ويقدم
محقق التراث الكبير العلامة عبد السلام هارون في كتابه الذي
يحمل هذا الاسم: مفهومنا مستندرا للتراث العربي، يجعله رديفا

للتراث الإنساني، فهو "كل ما كتب باللغة العربية، وانترج من روحها ونهارها قنرا بصرف النظر عن جنس كاتبه، أو دينه، أو مذهبه".

وقد شغل التراث العربي الإسلامي مساحة واسعة من التاريخ الإنساني، متفاعلا معه أخذا وعطاء خلال قرون الازدهار الحضاري العربي الخمسة، وما زالت هذه التأثيرات تطل علينا عبر الإبداع الأدبي والفكري حتى الآن.. ويمتد التراث العربي.. مثل غيره من تراث الشعوب الأخرى من الأسطورة إلى الحكاية والسيرة وبقي مكونات التراث الشعبي، ومن التراث الشعبي إلى التراث الحاصل والمدون، وفي مقدمته العادة التاريخية والثقافية.

والعلاقة بين الدين والتاريخ والتراث علاقة قديمة متجددة حسب مقتضيات تطور المكان والزمان. ففي العصور القديمة كان تاريخ الأنبياء والرسول هو الوجه الآخر للتاريخ الإنساني، بينما تاريخ الملوك والحكام هو وجهه المادي، أو تاريخ العمران الاجتماعي حسب تعبير العلامة ابن خلدون، وعندما انفصل التاريخ كعلم عن الدين والتراث عاد ثانية للاهتمام بالدين والتراث من خلال مناهجه الحديثة، هي دراسة تاريخ الأدب، والتاريخ الثقافي للبشر، بينما اتجهت بعض العلوم الإنسانية التي نشأت وتطورت في القرنين الماضيين، كالأنثروبولوجيا، والفولكلور، واللسانيات، والنقد الأدبي، لقراءة التراث الإنساني قراءة جديدة من خلال مناهجها، لتعني معرفة الإنسان بذاته، وبتاريخه الوجداني، وبمحيطه

الاجتماعي، وجماعته الإنتمائية، وانفرد الأدب، وخاصة في
العصور الحديثة، بالنظر إلى التراث الديني والأدبي
كمصدرين غنيين للإبداع الفني. فكان الحياة المعاصرة، وما
يكتنفها من عقبات مادية وعذابات روحية، تعيد للإنسان صلته
بالدين يستمد منه طاقة لمواجهة تحديات الواقع والعصر، التي
لا تأبه كثيرا بمصائر الجماعات المستضعفة، والإنسان
العادي، كما أعادت صلة هذا الإنسان بتراثه هي مواجهة
عوامل اقتلاعه من هويته، ليس لمجرد الاحتفاء السلبى بهذا
التراث كحل هرومي من مخاطبات الواقع، ولكن للتفكير في
هذا التراث الفني، عن حلول خاصة به وبأمنته، منطلقا من
إيمان حقيقي بأنه يملك تراثا لو نقص عنه تراكمات عصور
التدهور والتفكك والجمود، لوجد فيه كلورا عظيمة قادرة على
إمداده بإجابات مبتكرة على أسئلة الواقع والعصر.



(٢)

القصص الديني
والموروث التاريخي

كان الكثير من القصص الديني معروفا عند العرب قبل الإسلام، فقد كان هذا القصص أحد مكونات التاريخ الشفاهي العربي، وكانت قصص عاد وثمود وهرعون تنتقل بينهم بالتواتر كما يقول النحس الرازي، كما كان الشعر، وهو أصبح علم لدى العرب القدامى، كما وصفه عمر بن الخطاب، يحمل الكثير من الإشارات التاريخية والقصصية، وقد انتقل هذا القصص الديني السابق على الإسلام إلى العرب، طريق نصارى الشام والحبشة ويهود اليمن وجران والمدينة، كما انتقل عبر بعض المتقنين من أبنائهم الذين عرفوا الكتاب، وبعض اللغات المجاورة كالعبرية والفارسية، والذين كانت نفوسهم تضيق بالعقائد الوثنية.

ولكن هذا القصص الديني لم يردهر ويمو ويصبح إلا في ظلال القرآن الكريم، رغم أن القرآن ليس كتاب قصص، وإن شغلت مساحة القصص الديني فيه ما يتجاوز ربع المصحف بقليل، وذلك بالمعنى الواسع لمفهوم القصص، مما يؤكد أن القرآن استخدم القصص كوسيلة من وسائل إبلاغ الدعوة، أو بعبارة أخرى قام بتوظيف القصص توطيها دينيا يتفق وغاياته السامية، شأنه في ذلك شأن سائر الكتب السماوية المقدسة، فامتلاً بالموروث القصصي الدافع عند العرب، بشروطه

الموسوعية والجمالية، على شكل وحدات سردية جزئية
موزعة على عدة سور من سور القرآن الكريم، باستثناء قصة
يوسف، التي جاءت بمعناها الحكائي كاملاً في سورة يوسف
[د. محمد رجب النجار - التراث القصصي في الألب
العربي].

ويشمل القصص الديني الذي أشار إليه القرآن الكريم أربعة
أنواع من القصص: قصص الأنبياء، وتبدأ بقصة نبي البشر
آدم وأمه حواء وخروجهما من الجنة، ثم نبي البشر الثاني
نوح، وقصة الطوفان العظيم، ثم قصص النبيين العربيين، هود
وصالح مع قومهما، ثم قصة نبي الأنبياء إبراهيم مع النمرود
وقصة نبي العرب إسماعيل وقذائه، وحفر زمزم، وبناء
الكعبة، وقصة لوط مع قومه ويعقوب مع أبنائه، وقصة يوسف
مع أخوته وعلاقته بامرأة العزيز وسجنه، والنبي شعيب ثم
قصة موسى ومعجزة ميلاده، وخروجه بقومه من مصر، ثم
دعوته، وصراعه مع فرعون، والنبى اليهودى، وقصة البقرة،
وقصة فتنة داود مع أصحاب السبت، وسليمان وبلقيس، وإيوب
وبلائه، ويونس والخوت، وزكريا ويحيى، ثم مريم وعيسى
والمعجزات العيسوية.

ويلى قصص الأنبياء في القرآن الكريم، القصص المتعلقة
بالشعوب السابقة على الإسلام والتي ترد للعبرة التاريخية
المستفادة منها، مثل قصة أهل الكهف، قصة ذي القرنين،
قصة ياجوج ومأجوج، قصة عرير وأصحاب الجنة، قصة
قارون وكنوزة، قصة قابيل وهابيل، وقصص سد مأرب،

وسبل الحرم، وأصحاب الررس، وأصحاب الأخدود وأصحاب
 الفيل إلى غير ذلك مما يرتبط أشد الارتباط بالثواب والعقاب
 السماويين، والجنة والنار، والموت والبعث، ويرتبط بهذا
 المجال التاريخي، الوقائع والأحداث التي حدثت للرسول صلى
 الله عليه وسلم نفسه مع بداية اصطهاد قريش له وتكذيب
 دعوته وحصاره، وتحذيرات اليهود له، وقصص السالفين معه،
 ومرورا بقصة الإسراء والمعراج، وقصة الهجرة النبوية وما
 ارتبط بها من معجزات، وقصة الإقذ، والحروب التي فرضت
 على النبي أو العرول التي قام بها، وانتهاء بفتح مكة وتنام
 النصر، وتحريجا على الحديث عن زوجات النبي، خاصة
 زينب بنت جحش، وغير ذلك من مواقف وأحداث، وما يرتبط
 بهذا كله من لمحات رسولية، ومواقف إنسانية، ومعجزات
 الهيبة، وكثير منها يشكل معالم فاصلة في تاريخ البشرية.
 والغالب على القصص الديني القرآني، هو قصص الأنبياء
 وتاريخ مصالهم مع قوى الإنكار والشر، وليس الهدف من هذه
 القصص هو السرد التاريخي، ولكن الهدف هو التأمل والعظة
 والمعري الديني، لذلك جاءت صياغة هذا الموروث التاريخي
 في القرآن الكريم صياغة قصصية، في زمن لم يكن القصص
 فيه قد انفصل عن التاريخ، وكذلك جاء السرد بلاغيا هنيا.
 والدواعي الثالث من القصص القرآني، هو القصص العيني،
 القصص المتعلقة بعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الشياطين
 والسحرة، لذلك استوعبت كتب التفسير عدد تعرضها لهذا
 النوع من القصص الموروث العربي القديم من الحكايات

والأساطير، كما استوعبت للموروث السامي، والذي عرف
بـ"الإسرائيليات".

وهناك نوع رابع من القصص القرآني، هو الذي يسميه
الدكتور النجار بالقصص الرمزي والتمثلي، وهو القصص
المتعلق بعالم الحيوان، أو الذي يروى على لسان الحيوان،
كقصة العراب الذي بعثه الله لابن آدم لكي يعلمه كيف يوازي
سواة أحيه، وقصة الطير التي بدحها إبراهيم الخليل وورع
أجزاءها على قمم الجبال ثم استدعاها فجاءت تسمى، وقصة
بقرة بني إسرائيل التي أمر موسى بدحها لكشف جريمة القتل،
وقصة الذئب الذي اتهم زورا بأكل يوسف، وهدد سليمان،
ودابة الأرض التي كشفت لنا أن الجر لا يعلم الغيب، وعمار
عزير الذي لعنه الله مائة عام ثم بعثه.. إلخ.

وثمة صور قرآنية تحمل أسماء حيوانات مثل: النحل، النمل،
البقرة، العنكبوت، الثعلب، ورغم وفرة المادة القصصية في
القرآن الكريم، إلا أنها وردت كما استلغا كإشارات مجملّة،
أو لمحات سرديّة.. ولم تتحول إلى قصص ديني كامل إلا على
يد المفسرين ورواة الأحبار والمؤرخين القدامى، لتصبح
قصصا دينيا بشريا منفصلا عن القصص القرآني وإن استلهمه
في البداية ليبني عليه إداعه القصصية.



العرب وديانات ما قبل الإسلام

كانت الكعبة هي أقدس ما في بلاد العرب قبل الإسلام، وكان بعض العرب قد عرف الديقتين الكبيرين: اليهودية والمسيحية، التي كانوا يسمون أتباعها بـ "أهل الكتاب".. وكانت قريش تعرف "الله" الذي يعبدّه اليهود والنصارى "وأنشأهم من خلق السموات والأرض وسحر الشمس والقمر فيقول الله" ولكنهم استمروا في عبادة آلهة أخرى، مثلما كان العبرانيون القدماء يفعلون.. كانوا يتوجهون إلى أصنامهم الكبرى في فترات الرخاء والازدهار، حتى إذا ما حلت بهم أزمة خافقة توجهوا بعطرتهم إلى الله القادر وحده على إراحة الأخطار عنهم، ويصير القرآن الكريم مثلاً بمن كانوا في العلك وخشوا الفرق، فدعوا الله حتى إذا جاءهم سوء وتوجهوا إلى آلهتهم.

ولكن بعض متقني العرب قبل الإسلام مباشرة كان بهم
رغبة أكيدة في تجاوز ذلك الموقف المزدوج في عبادة الله
الذي يعبد النصارى واليهود من العرب الجنوبيين، والعرب
الملحقين بالقوتين المهيمنتين الكبيرين في ذلك العصر
وبعض الفرس والرومان، وبرز عبادتهم الهتهم القديمة: اللات،
والعزى، ومناء، وهبل.. وكان بعض النصارى واليهود
يقومون بالحج إلى البيت الحرام مع باقي قومهم من الوشيين..
لقد أراد هذا البعض المستجير من العرب القدامى دينا خاصا
بهم، لا يرتبط باليهودية التي شرعها فارس، ولا بالمسيحية
التي شرعها روما، والتي تسيطر على مصائر الشعوب
الأخرى عن طريقهما.. ويخبرنا المؤرخ الفلسطيني المسيحي
"سورومبوس" الذي عاش في القرن الخامس الميلادي، أن
بعض العرب كانوا يحاولون التبعيد حسب دين الحليل إبراهيم
الذي اكتشفوه "ول شئنا الدقة العلمية، فإن إبراهيم لم يكن
يهوديا ولا مسيحيا، إذ كان يعيش في وقت سابق على التوراة
التي أتت بها موسى إلى بني إسرائيل".

كما نورد سيرة ابن هشام قصة الرجال القرشيين الأربعة
قبل الإسلام الذين خرجوا يبحثون عن دين صحيح لا يقوم
على عبادة الأصنام، وعقدوا فيما بينهم حلفا سريا، واتهموا
بأنهم قرش بنهم اسندوا دين أبيهم إبراهيم، وأن الحجر الذي
يطوفون حوله، لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع،
وقالوا "فلتبحثوا لكم عن دين، فليس لكم والله من دين تنبؤون
به، ومن ثم جعلوا يصرون في الأرض سعيًا وراء الحقيقة

دين إبراهيم عليه السلام".

وكان الصفاء الثلاثة هم: عبيد الله بن جحش ابن عم النبي، وقد اعتنق الإسلام ثم تحول إلى النصرانية، وكلي الثقي ورفعة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة زوجة النبي الأولى، والثالث هو عثمان بن الحويرث، وكان من الشخصيات البارزة في مكة فترة شباب النبي. وقد اعتنق النصرانية، وحاول إقناع أهل مكة بأن يجعلوه ملكا عليهم، ووعدهم بتحقيق شروط تجارية أفضل لهم مع البيزنطيين، الذين كانوا يطمحون في تحويل مكة لأهميتها التجارية إلى دولة تابعة لهم، ورفض المكبيون العرض فقد كانوا يكرهون أن يتخذوا ملكا عليهم. أما رابع هذه المجموعة فهو زيد بن عمرو، الذي لم يكتب بالحروص على عبادة آلهة قريش، بل راح ينتقد هذه الآلهة علنا، وكان أخوه غير الشقيق الخطاب بن نضيل (والد أمير المؤمنين عمر) من المخلصين لعبادة الأوثان، ومن أشد حراس التراث القديم قوة وحصما، وكان ابنه عمر يشاركه هذا الموقف، فهم يرون أن عبادة للكعبة عاملا مهما في وحدة قريش، لذلك ساء للخطاب ما يقوله ويفعله أخوه زيد، وأغضبته لارتداده عن دين آبائه، فطرده من مكة، "وقيل أنه شكل فريقا من شباب المتحمسين لعبادة الأوثان، وجعلهم رقباء على التلال المحيطة بمكة حيث كان زيد يحتفل، ليمسوه من دخول الكعبة، وهكذا ترك زيد الحجار ورحل إلى البلاد المتحضرة سعيًا وراء الدين الصحيح، وبلغ الموصل في العراق، ثم ارتحل إلى سوريا، وهو يسأل كل راهب أو حاخام يصانفه عن الدين النقي الذي جاء به إبراهيم وأخيرا قابل راهبا أخبره

أن الوقت قد حان لظهور نبي في مكة يبشر بالدين الذي يبحث عنه. وهكذا عاد زيد أنزاجه، ولكنه تعرض لحادث اعتداء ضد الحدود الجنوبية لسوريا، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يقدر أنه أن يقابل محمدا.

ولكن ابنه سعيدا أصبح من أخلص صحابة النبي، وكان زيد قبل أن يرغمه أخوه على ترك مكة، يقف إلى جوار الكعبة ثم يصيح في قريش أثناء طوافها حولها. "يا معشر قريش، والذي من زيد بيده، ليس فيكم من يتبع دين إبراهيم سواي" ثم يصيح داعيا ربه: "إلهي! لو أنني أعرف كيف تريدني أن أعبدك لعبادتك العبادة التي ترضاها، ولكني أجهلها".

لم يعد النظام القبلي والوثنية القديمة المرتبطان بحياة الترحل السابقة صالحين لحياة الاستقرار وشبه التحضّر الذين عرفتهما مكة، منذ أن استقرت قريش فيها في أواخر القرن الخامس الميلادي، كان بعض العرب قد بدؤا التعامل التجاري مع الدول المتحصنة المجاورة، ولعل قصة النصر بن الحارث ابن حلة النبي، والذي كاد للنبي والمسلمين الأوائل كيدا شديدا، جعله يستحق التقلع، بعد أسره في معركة بدر، لعل هذه القصة تكشف عن هذا اللون من الثقافة الذي عرفه بعض وجوه مكة قبل الإسلام، فقد كان النصر يتقصصه وما يحفظه من أشعار الأمم الأخرى، وما يعرفه من موسيقاهم يسلب أنياب أهل مكة.. وكان يعد نفسه نظيرا وبدا للنبي عليه الصلاة والسلام، كان يقول: "إذا كان محمد يحدّثكم بأحاديث عاد وثمود، فلما أحدثكم بأحاديث رستم واسفنديار، وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة، فلهوا أحدثكم أحسن من حديثه"

وهو الذي نزلت فيه الآيات القرآنية الكريمة * ومن الناس من
يشترى لهم الحديث، ليصل عن سبيل الله بخبر علم، ويتخذها
هروا أولئك لهم عذاب مهين.. وإذا نقلى عليه آياتنا إلى
مستكبرا، كأن لم يسمعها، كل في أنبيه وقرا يشره بعذاب
أنهم*.



أنبياء العرب القديمة

إنكر يهود المدينة نبوة هود هي قوم عاد، ونبوة صالح هي قوم ثمود، وعاد وثمود من القبائل العربية القديمة، لأن التوراة لم تورد اسمي هود وصالح ولا قومهما، وقد صار جنس يشأهما بين الرسول عليه السلام وبين اليهود.. ويذكر ابن الأثير في تاريخه أن شهرة النبيين: هود وصالح عند العرب قبل الإسلام كشهرة إبراهيم الخليل عليه السلام، وإن إنكار اليهود لهما ولقومهما ليس بأعجب من إنكارهم نبوة إبراهيم الخليل ونبوة المسيح عليهما السلام. ويفسر ابن خلدون عدم ذكر عاد وثمود في التوراة، بأن الأمم التي ورد ذكرها في التوراة هي الأمم التي عاشت في الفترة ما بين آدم وموسى عليهما السلام.

وتورد أحبار العرب القديمة اسم نبي عربي لم يرد ذكره في القرآن، واختلف بشأنه الآراء، وهو "حالد بن سنان العجمي"

الذي يقال أنه عاش في الفترة الزمنية الفاصلة بين فتح الإسكندر لإيران وبين قيام الدولة الساسانية، بينما نسبته رواية أخرى إلى العصر السابق للعصر النبوي مباشرة، ويروى أن معجزته ارتبطت بظهور نار بأرض العرب افتتن بها الناس، وكانوا يعبدونها كالمجوس، فأخذ خالد عصاه، ودخل النار حتى توسطها، ففرقها بحصاه، وهو يتلو سجعا شبيها بسجع الكهان: "بدا بداء كل هدى مؤدى، لأدخلها وهي تطفى، ولا أخرج منها وثباتى تندى" وهي معجزة تذكر بمعجزة إبراهيم الخليل الذي جعل الله النار من حوله بردا وسلاما.. ويورد ابن الأثير في تاريخه أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف خالد بن سنان هذا بأنه "نبي صبيحه قومه" وإن ابنة خالد أدركت النبي فاست به، ويشير المؤرخون القدامى إلى سى أهر من العرب قبل الإسلام، هو "حنظلة بن صفوان" الذي أرسله الله لأصحاب الرس "البئر" بعد خالد بن سنان بمائة سنة. ويقول عنه ابن كثير أنه كان قبل موسى، كما يشير إلى العثور على قبره قرب مدينة تستر عند فتحها، ويعلق الدكتور سعد رطلول عبد الحميد على قصة نبوة خالد بن سنان الحمصي ومعجزته بأنها تعبير عن كراهية العرب للمجوسية ونيران الفرس، مما يمكن اعتباره تعبيراً عن الروح القومية في مواجهة التهديد الفارسي "ولا بأس في أن يكون خالد بن سنان هذا من كهان العرب، أن لم يكن من مستنبيهم قبيل العصر النبوي، وذلك أن الرواية القصصية تصيف إلى ما سبق، أنه عندما حصرته الرواة طلب من أهله أن ينشؤوا قبره،

إذا ما ضرب القدر بعير أبتز بحالفره، حتى يخبرهم بما هو كائن، ولكن قومه لم يفعلوا ذلك خوفاً من أن تسبهم العرب'. وقد اهتم المؤرخون العرب القدامى بأساطير وأخبار الأمم المجاورة لهم، والتي عاشوها وعرفوها ثقافتها بعد دخولها في إطار الدولة العربية الإسلامية، وتنعكس رؤية هؤلاء المؤرخين القدامى، كابن الأثير وابن خلدون وابن قتيبة، وإخوان الصفا في رسائلهم، واليعقوبي، تنعكس رؤية هؤلاء لتراث الأمم الأخرى، مسلحة فكرية عالية ورغبة في المعرفة والوصول إلى الحقيقة دون تحصب أو انغلاق... فقد اهتم هؤلاء المؤرخون بما يقوله القوم عن أنبيائهم ومعتقداتهم، كما اهتموا بحكماء الروم (فلاسفة اليونان) مثل هرمس "المثلث بالنعمة" الذي يسمى في التراث الإسلامي بالنبي إدريس. أما ما يقابل النبي إدريس عند القوم فهو "بيوراسب" الذي ظهر على عهد الملك "ظمهورث بن يوجهان" بمعنى "خير أهل الأرض" وتتحدث الأسطورة عن علاقة النبي بالملك، والتي تشبه علاقة أنبياء بني إسرائيل بملوكهم كمرشدين وناصحين، و"بيوراسب" هذا هو نبي الصابئة الذي تنسب إليه الأسطورة أنه كان يستخدم للسحر الذي تعلمه من كلام آدم عليه السلام، وقد استفاد الملك من هذا السحر في السيطرة على إيليس، فكان يملكه ويطوف عليه لتأصي الأرض، كما ينسب إلى أخى الملك المسمى بـ "جمشيد" بمعنى شجاع القمر، وقد لقب به لجماله، أنه كان يستعيد الإثس والجن ويذل الشياطين ويسخرهم في أعمال البناء والتشييد، فهو من هذا الوجه شبيه

بمسليمان الحكيم.. وعن طريق مذهب الصابئة هذا ظهرت عبادة الأصنام "لأن أصل مذهبهم" كان عبادة الملائكة لتقريبهم إلى الله زلفى "فإنهم اعترفوا بصانع العالم، وأنه حكيم قادر مقنس، إلا أنهم قالوا: الواجب علينا معرفة العجر عن الوصول إلى معرفة جلالة، وإنما نتقرب إليه بالوسائط المقربة إليه وهم الروحانيون (الملائكة) وحيث لم يمانوا الروحانيين تقربوا إليهم بالهيكل، وهي الكواكب السبعة السيارة، ولما كانت الكواكب تعيب نهاراً، ذهبت فئة من الصابئين إلى وضع الأصنام لتكون نصب أعينهم ليتوسلوا بها إلى الهيكل، والهيكل إلى الروحانيين، والروحانيين إلى صانع العالم، فهذا كان أصل وضع الأصنام أولاً (الكامل لأبي الأثير نقلاً عن د. سعد رغلول عبد الحميد) ولعل ذلك سر سماحة نظرة الإسلام إلى الصابئة.

ويربط المؤرخون القدامى بين جحود البشر وكفرهم، وتصرفهم إلى الفروع دون الأصول ونسيانهم للتوحيد، وبين رسالة النبي نوح كأول نبي بعث بالإنذار والدعوة للتوحيد، ومباشرة قومه في العودة إلى الحق، والامتثال لأوامر الله.. لكنه كان مكتوباً على الإنسانية الخاطئة أن تنتهي، فلا يبقى منها إلا أهل التوبة والتوحيد "هكذا كان الطوفان فاصلاً بين بنى نوح (بنى النشورية الأول) وبنى نوح (بنى للحليقة الثاني) وإلى أبناء نوح الثلاثة وهم: سام وحام ويافت، الذين نجوا معه في السفينة، مارال علماء النسب يقسمون البشر، إلى: ساميين وحاميين ويافتيين (أي هند وأوروبيين).. وكأنه لم ينج من

الطوفان إلا لسورة نوح الصغيرة. وبناء على ذلك تبدأ بعد الطوفان دورة جديدة للإنسانية، كأنها بداية المصور التاريخي. ولقد نظر القوس والهد إلى حادثة الفيضان الكبير على أنها كارثة طبيعية محلية، ربما حلت بأرض بابل فقط، وإلا لفر كانت عامة شاملة لكافة الأرض المعصورة لعرف بها أهل بلادهم، ولسجلها مؤرخوهم (الطبري وابن الأثير في المصدر السابق د سعد زغلول عبد الحميد).



وقد كانت بيوة النبي هود في قبائل عاد التي كان موطنها اليمن وحضرموت، وبيوة النبي صالح في قبائل ثمود التي كانت تعيش في شمال الحجاز، نيوين عربيتين حالييتين، جاءت فصتهما خارج سياق بيوات أسفار العهد القديم (التوراة). وتعمك قصة النبيين العربيين طبيعة الحياة العربية على مستوياتها الاجتماعية والاقتصادية والدينية، كما أنها تربط بين معتقدات العرب المحلية في صحراواتهم وبولادهم، وبين تجولهم للحرم المكي الذي يمثل عامل الربط والتوحيد بين كل ديارات العرب قديما. وهي في النهاية تجعل من الكوارث الطبيعية عقابا جتيا من الله يدرله بالعصاة والفجار من الكافرين".

يحدثوا القوس الكريم أن قبائل عاد، عصوا بنبيهم هود، واستمروا في صلاتهم وعبادتهم لأصنامهم، وفي عتوهم في

الأرض "وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقتلوا من
أشدّ منّا قوة" ويذكر عبيد بن شريه في كتاب "الملوك وأخبار
الماضيين" أن أصنام قيثايل عاد هي: صداء، وبعاء، وصعود،
وأنهم بعد عصيانهم لبيهم هود ورفضهم لما دعاهم إليه من
ترك الأصنام وعبادة الله أنزل عليهم القحط الذي استمر ثلاث
سنوات، سموا السنة الأولى بـ: حجرة، والثانية: كحلا،
والثالثة: كلكا، وأنه عندما ذهب وفد منهم إلى مكة يستسقى
ويطلب الممطرة، سموا ما جاعوا من أجله وانصرفوا إلى
طعامهم وملذاتهم ولهوهم، فاستحقوا العذاب، إلا من آمن منهم،
فأرسل الله عليهم ريحا صرصرأ عاتية، كأمثال الجبال لها لجم
بأبدي رجال، كان في وجوههم شهب النار، حسب وصف
ناحتهم "مهد" التي توصف بأنها أول فاتحة عربية، والتي
يقول عنها الشاعر:

رأت ما رأت "مهد" فقل لها .. ماذا تري؟

فألت: أنظر العجبا!

أرى رياحا كأمثال الجبال لها.. لجم بأبدي رجل تشبه
الشهبا

وعصفت جبال الريح بقيثايل عاد المتجبرة طوال "سبع ليال
وثمانية أيام حسوما" ولم تتركهم إلا وقد صاروا كأعجاز نخل
خاوية.

وهي أحد أعياد قيثايل شموذ يطلبون من بيهم صالح أن يأتي
لهم بمعجزة يعثرون بها، ويحدثون نوع المعجزة بما يتناسب
مع عقولهم البدوية، فهم يطلبون منه أن يستخرج لهم من

الصخر "ناقة حمراء شعراء وبراء مبهرجة، لها ضجيج وعجيج ورغاء شديد، تكور لنا سائغاً ويخرج لهم النبي صالح الناقة حسب مواصفاتهم، ولكنهم يحتفلون بشائها، ثم يعقرونها ويتكلمون لحماها، ويرمون صعيدها، فيدعو صالح عليهم، فيزل الله بهم العذاب استجابة لدعائه، وقد استمر عذابهم أربعة أيام "في اليوم الأول لصغرت وجوههم، ثم إنهم احمرت في اليوم الثاني قبل أن ت سود في اليوم الثالث، وأخيراً أكتهم الصاعقة في اليوم الرابع فقست عليهم" ويترك النبي صالح أرض قومه إلى الشام، ويقوم رمداً في فلسطين ثم ينتقل منها إلى مكة، فيقيم في البلد الحرام بعد الله إلى أن يموت وهو في الثامنة والحسين من عمره، بعد أن استمرت دعوته في قومه عشرين عاماً.

"وبذلك ارتبطت دعوة هود وصالح بالعروبية من جهة، ويتقدم مكة من جهة أخرى، وذلك قبل أن يأتي إبراهيم الخليل (أبو الأنبياء) حوالي سنة (٢٠٠٠ قبل الميلاد) ليقيم قواعد البيت، ويدعو الناس إلى الحج، ويتم الربط بين الإبراهيمية الحنيفية وبين המחنية الإسلامية. وهي بعد فكرة في صميم القدرة ويمكن تراث النبوة بين العرب عن طريق النبي إسماعيل أبي العرب المستعربة من جهة وصهر العرب العاربة عن طريق زوجته الجرجسية من جهة ثانية، إضافة إلى أنه ابن لهاجر المصرية من جهة ثالثة: الأمر الذي يجعلهم أحوال العرب. وهي أمور يؤكد عليها التراث الإسلامي في صياغته لرسالة التوحيد التي تربط بين الحنيفية الإبراهيمية

وبين المسيحية الوسيطة، وبين الدعوة للمحمدية.. وقد اهتم المؤرخون المسلمون القدامى ببيان اوجه الشبه بين الدعوة الإبراهيمية والدعوة الإسلامية. فكلتاها صد عبادة الأصنام، وكلتاها مرتبطة بفريضة الحج، وتطلبت منك الحج أن يعتمر إبراهيم بعشر خصال، هي المعمول بها في الإسلام، لتطهير البدن، حمسة منها في الرأس، وحمسة هي الجسد، والحمسة التي هي الرأس هي: قص الشارب، والمضمضة، والاستنشاق، وفرق الشعر، والحمسة التي هي الجسد هي: تقليم الأظفار، وحلق العانة، والختان، ونف الأبط، وغسل أثر العائط".

ويعتد التشابه بين الخليل إبراهيم ونبي الإسلام إلى بدر عبد المطلب لأبي النبي عبد الله للألهة، متلما بدر الخليل ابنه إسماعيل، ولذلك يسمى النبي بابن الذبيحين (عبد الله وإسماعيل). ويعتبر العلامة ابن خلدون الخليل إبراهيم أباً ثالثاً للبشرية بعد آدم ونوح، باعتباره أباً للعرب جميعاً، وحيث جعل الله في ذريته النبوة والكتاب إلى آخر الدهر.

ويبدو الفارق بين الخليل إبراهيم والنبي محمد عليهما السلام، والذي حرص القرآن على تأكيده، هو اعتماد نبوة إبراهيم على المعجزة الخارقة المتمثلة في تحول النار من حوله إلى برد وسلام، إلى جانب اعتماد نبوته على الوحي الإلهي والإلهام الصادق، بينما اعتمدت النبوة المحمدية على الوحي الإلهي بالقرآن معجزته الكبرى، وإن كان الثرات الشعبي الإسلامي قد أفاض في إضافة العديد من المعجزات

والحواري إلى السيرة النبوية كما ارتفع بعض المتصوفة
بشخصية النبي صلى الله عليه وسلم إلى مستوى اللطائف
الكونية، والعلل الأولى للموجودات، ولن اسمه موجود في كل
شئ هي الجنة، من القصور إلى بحور الحور، إلى ورق أجام
الجنة، ولولاء لما خلق الله سماء ولا أرضا، ولا طولاً ولا
عرضا، ولولاء ما كان لا ملك ولا ملك.. كلا ولا بان تحريم
وتحليل.



عاد وثمود في الأسطورة والتاريخ

تعتزج الأسطورة بالتاريخ فيما يتصل بأقوام العرب البائدة، وفي مقدمتها قوما عاد وثمود اللذان وردت قصتهما في القرآن الكريم، كما أشرنا سابقا، وكان ورودهما في القرآن، كغيرهما من القصص، بهدف للحظة والعبرة بأحوال الأمم السابقة، وليس بهدف التوثيق التاريخي، وقد شكك بعض المؤرخين في حقيقة وجود الأقوام العربية البائدة: عاد، ثمود، طسم، جذيم، لميم، جاسم، عييل، عبد ضحيم، والمسافقة، وجرهم الأولى. ونسبوا ما قيل عن هذه الأقوام من قصص إلى خيال الرواة والباحثين، لكن الأبحاث الأثرية واللغوية الحديثة كشفت كثيرا من المعلومات والحقائق المتعلقة بتلك الأقوام، وإن ظلت الأساطير مسترجة بتلك الحقائق، عن عاد وثمود وقصتهما مع النبيين هود وصالح، وقد كانت قصة عاد شائعة بين عرب ما

قبل الإسلام، الذين كانوا يعتقدون أنهم قوم موعلون في القدم، لذلك كانوا يصغون ما يردن المبالغة في وصفه بالقدم، بأنه عادى. وفي لسان العرب: العادى هو الشيء القديم، أى أن الكلمة صفة وليست اسم علم. ويختلف الاخباريون القدماء، كما أنهم، في تفسير اسم "عاد" فهو عند البعض اسم لأبى القبيلة الذين يصلون نسبة لإرم بن سام بن نوح، ويعتمدون على ذلك في تفسير الآية القرآنية "لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادِ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ" ويقول بخباريون آخرون: أن عاد اسم لأم تلك القبيلة، أو اسم لبلدتهم، والعرب قد عرفوا كشعوب كثيرة الانتساب للأُم في مرحلة ما قبل المجتمع الطبقي ويرى بعض المستشرقين المعتمدين على التفسيرات التوراتية للتاريخ أن هذا الاسم المؤنث يشير إلى اسم "عادة" زوجة لامك حفيد سام بن نوح. أو أم بابل، الذي ورد اسمه في سفر التكوين من العهد القديم، كوالد لوعاء الموائى سكان الحيام. ويحددون موطن قوم عاد في الأرض الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب. أما الذين يرون أن بلدهم هو "إرم" ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد" فيحتفلون أبداً في تحديد موقعها: - فهي في أبين بين عدن وحصرموت، أو هي دمشق، أو الإسكندرية، كما يرى السعودى في كتابه "مروج الذهب" وإرم هو من أسماء دمشق بالعميرية. ويرى جورج ريدان في كتابه "العرب قبل الإسلام" أن اسم تلك القبيلة هو "عاد إرم" مستندا بذلك على التوراة والكتابات اليونانية. أما مساكن قوم عاد، والتي أشار إليها القرآن الكريم

بالاحقاف "وأذكر أبا عاد إذا اندر قومه بالاحقاف وهي
الرمال المعتد بين شمر وعملى إلى حصر موت والشحر.
وربما كان التحديد الجغرافى غير بعيد، فقد ذكر كثير من
الناحئين المتفبين فى الحرية العربية أن الربع الحالى يشتمل
فى طيات رملته على آثار مدينة أو حصارة بائدة، كانت
عظيمة الأذهار، وانهم وجدوا بعض التواهد على ذلك ()
ويقترن اسم عاد بشمود فى كثير من الآيات القرآنية، وقد ذكر
الجغرافى الإغريقى بطليموس قوما سماهم "بهلاء القوم، أنهم
قوم عاد، بل ذلك هو الراجح، ويؤيده ما سبق أن ذكرنا من
إقتران عاد وشمود فى كثير من النصوص القرآنية، مما يدل
على تجاورهما وتكاديهما كما أن بطليموس ذكر موضعا يقال
له "إرماد" الذى يسمونه العالمان "مودل ومورنس" بأنه هو "إرم"
أو "إرم ذات العماد" وهو يقع على مسافة ٢٥ ميلا شرقى
الغفة قرب الأردن.. وقد أظهرت الحفريات التى قام بها عالم
الآثار هورسفيل عام ١٩٣٢ فى موضع جبل "إرم" صححة هذا
الرأى، إذ ورد فى الكتابات النبطية فى حرائب معبد اكتشف
على جبل "إرم" أن اسم هذا الموضع هو "إرم" لوزد ذكره فى
القرآن الكريم ومن الطريف أن الاحباريين والرواة القدامى،
قد وضعوا شجرا على نسان ابن هود الذى أسموه "قحطلى" فآله
بعد أن هلك قومه وهم على الكفر، يقول الشعر :

بني رأيت بنى هود يورقه
حزن نخيل وبانال وتسهاد

لا يحرثنك إن خصبت بداهية
 عاد بن عوص فعاد بنمن ما عادوا
 عاد، عصوا ربهم واستكبروا
 وعتوا عما بهوا عنه لا سادوا ولا قادوا
 قاموا يردون عنهم من سفاقتهم
 ريحا بها أهلكوا أيمن ما باتوا
 والشعر وأصبح الموضع والانتحال، ولكن الزوارة كانوا
 يصنعون مثل هذا الشعر على لسان شخصيات التاريخ القديم،
 من باب التزيين الأدبي الذي يؤكد المعنى، غير ملتفتين إلى
 منطق هذا الشعر الموضوح، إلى درجة أنهم وضعوا شعرا
 عربيا على لسان آدم أبي البشر يرنى به لبعه الذي قتله أخوه!



كان العرب قبل الإسلام مباشرة يعرفون عن ثمود أكثر مما
 يعرفون عن عاد، وقد سبب بعض علماء الانساب قبيلة ثقيف
 التي كانت تعيش في الطائف إلى ثمود، كما سبب آخرون
 قبائل الهلالية إليهم.. وقد ورد ذكر ثمود في القرآن الكريم
 مقتربا بعاد، كما أشربا من قبل، وكما جاء في سورة العنكبوت
 "وعاد وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم" كما يأتي ذكر قوم
 ثمود بمفردهم "وثمود الذين جابوا الصخر بالواد" أي قطعوا
 صخر جبال وادى القرى واتخذوا فيه بيوتا. ويقول المؤرخ
 والجغرافى المسعودى ان مساكن ثمود كانت بين الشام

والحجاز إلى ساحل البحر الأحمر، وأن ديارهم كانت بفج
النفقة، وهو مكان قريب من الحجر، وأن بقاياهم كانت
موجودة في طريق الحج بالقرب من وادي القرى.
وقد ورد ذكر ثمود في المصادر الإغريقية وفي الحفريات
الأثورية، كما حددت مساكنهم في المنطقة الواقعة شمال
غربي اليمن، وقد عثر في اليمن على نقوش ثمودية مما يؤكد
صلة الثموديين بجنوب الجزيرة، ووجدت بصوحت ثمودية
أيضا في مناطق حائل بحد وفي أرض تنوك وتيماء ومدائن
صالح، والمسامل الجبلية بين هذه المنطقة وبين الحجاز
والطائف، وفي شبه جزيرة سياء، وفي الصفا شرق دمشق،
وفي مصر () وقد أدرك قوم ثمود أيام المسيح، وعاشوا بعد
الميلاد، وكانوا يقطنون تلك الأيام أعالي الحجاز في دومة
الجدل والحجر، وفي غربي واحة تيماء في المنطقة المهمة
التي يمر بها طريق اليمن الحجاز الشام مصر
العراق. وقد تمكن (الانسكتر هارديك) محافظ مديرية الآثار
العتيقة بالمملكة الأردنية الهاشمية من تصوير ما يريد على
خمسائة كتابة ثمودية أرسلها إلى المستشرق المعروف
(إيثمان) يعود بعضها إلى ما قبل الميلاد، ويعود قسم منها إلى
ما بعد الميلاد () ومن المعروف عند العرب أن الثموديين
كانوا أيضا من عبدة الأوثان، كفروا بالله وحلوا عن أمره،
فلرسل الله إليهم النبي صالح يعظهم وينذرهم، ولكنهم لم
يذعنوا لأمر الله على لسان نبيه صالح، فلرسل الله عليهم
الصاعقة بظلمهم، فأصبحوا من ديارهم جاثمين. ويرى

المستشرق (براي) أن ثمودا أصيبوا بكارثة عظيمة هي عبارة
عن ثوران براكين وهرات أرضية، لأن المناطق التي كانوا
يسكنونها من مناطق الحرارة: أي الأرض السوداء، كما أن
عبارتي. رجفة، وصيحة، اللورد ذكرهما في القرآن الكريم
تؤيدان ذلك^١.

[دراسات في العصر الجاهلي. تأليف أحمد أبو الفضل _
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية].



قريش والبيت الحرام

كانت الكعبة، أهم الأماكن المقدسة عند العرب قبل الإسلام، إذ كانت الرمز المتمثل لحياتهم الروحية، وقبل البعثة المحمدية مباشرة كانت قد حصصت للآله الوثني (هبل)، الذي جلبه العرب من معنكة الأنياب التي كانت قائمة مكان الأرض حالياً. ولكن ارتباط العرب بالكعبة والمكانة الرفيعة التي كانت تحتلها في وجدانهم تشير إلى أنه كان، فيما يبدو، للبيت الذي بقي في أول الأمر لله، وهو الرب الأعلى للعرب.. وكانت حول الكعبة منطقة دائرية كان الحجاج يقومون فيها بشجرة الطواف، أي أن يطوفوا سبع مرات حول الكعبة في اتجاه حركة الشمس، وكان حول الكعبة كذلك ٣٦٠ صنمًا، أو تماثيل للآلِهات، وربما كانت رموزاً طوطمية لشئى القبائل التي كانت تحج إلى البيت في الشهر المحدد لذلك.. وكانت المنطقة المحيطة بمكة

(وهي نصف دائرة قطرها عشرون ميلا ومركزها الكعبة)
 ارضا حراما، أي لها كانت حرما لا يسمح فيها بالارتكاب
 أعمال الصف او القتال
 وقد حفظ لنا كتاب "الأصنام" للكلبي، وكتاب "رسالة العفرائ"
 لأبي العلاء المعري بعض الأدعية النبوية التي كانت يرددونها
 القبائل العربية في الكعبة امام الهنأ الخاصة قبل الإسلام،
 وكان لكل قبيلة "تهليلها" الخاصة، التي تأخذ شكل النظم
 الشعري البسيط والأقرب إلى الأشعار الفلكلورية. كما تشير
 سيرة عترة إلى العديد من طغوس الجاهلية النبوية حول الكعبة
 والهنأ الوثنية.. وتزى الباحثة البريطانية كارين ارمسترونج
 في كتابها "عميرة النبي محمد" أن البيت الحرام كان يمتع
 بقائمة مشتركة بين أبناء الجنس البشري (شعوب منطقة
 الشرق الأدنى قديما) ومن الذين السومري القديم هو الذي
 صيغت منه فكرة الدائرة، والأركان الأربعة، التي تمثل أركان
 الأرض الأربعة، والرموز المعلمة حول الكعبة وعددها ٣٦٠،
 تشير إلى عدد أيام السنة السومرية المكونة من ٣٦٠ يوما،
 إلى جانب خمسة أيام مقدسة يقضيها الناس "خارج الزمان"
 لتقيام شعائر خاصة تربط ما بين الأرض والسماء ومن
 المحتمل أن تكون شعيرة الحج تمثيلا لتلك الأيام الخمسة،
 هالحج يودى مرة واحدة في العام، ويشارك فيه العرب من
 شتى أنحاء الجزيرة. وشعائره تبدأ من الكعبة ثم بعد ذلك
 الموازات المقدسة خارجها، وفي نظر بعض العلماء أن تلك
 الشعائر المختلفة، قد يكون القصد منها تمثيل تعصب الشمس

المختصرة (كان الحج في البداية يتم في موسم الحريف) استكروا الأمطار للشتاء، إذ يدفع الحجاج جميعا إلى قاع وادي المردقة، حيث يسكن إله الرعد، ثم يسهرون طوال الليل على السهل المحيط بجبل عرفات، الذي كان يبعد عن مكة نحو ستة عشر ميلا، ثم يرجعون بالحصباء الأعمدة الثلاثة المقدسة في "منى" وأحيرا يسهرون نبيحة يقدمونها أصحية أو قربانا. ولا يهتم أحد اليوم حقا ما كانت تلك الشعائر تعنيه فعندئذ، والأرجح أن العرب أنفسهم كانوا قد نسوا، في عصر النبي، الدلالة الأصلية لها، ولكنهم ظلوا على ارتباطهم الوثيق والعميق بالكعبة وغيرها من المرايات المقدسة في بلاد العرب، ولم يتوقفوا بل استمروا في أداء الشعائر الخاصة بها في تقاليد وإخلاص.

كل موسم الحج يعنى بالنسبة للعربي، إلى جانب الالتزام النبي، ضرورة نصية وإداعية هي الخروج عن الرتبة المصجرة، والكفاح المرير من أجل الحياة، والصراع المبارى الذى تحكمه التقاليد القبلية، ففي أيام الحج لا قتال ولا اعتداء، كما كان لأيام الحج جانبها الاقتصادى التجارى، وكانت مكة من أسواق العرب المهمة المتوسطة، وكان الحرم نفسه على الأرجح، يمثل للعالم، أى الأرض بأركانها الأربعة المنبثقة من مركز معين، ويبدو أن الدائرة من السماذج الفطرية القديمة، التى نجدها في جميع الثقافات تقريبا رمزا للحلود، وللعالم والنفس. وهي، تمثل، مكانيا ورمانيا، كلا كاملا، ومن ثم فالسير في محيط الدائرة أو الطواف حولها (وهو من

الممارسات الدينية المشتركة بين أديان كثيرة) يعنى أنك دائما ما ترجع إلى النقطة التي أطلقت منها، إنك تكتشف أن النهاية هي البداية () ومعظم الأماكن المقدسة، هي شتى الثقافات التقليدية، يرى الناس أنها تقع في مركز العالم، وأنها كانت أولى الأماكن التي خلقها الآلهة. وكان الحاج يرى أنها قد اكتسبت بهاء البدايات وروائها وكان يحس أنه يقترب، بصورة ما، من مركز القوة في الوجود.

لقد اشتهرت قريش بأنشطتها التجارية والدينية قبل الإسلام، كما اشتهرت بقوةها الأخلاقية وفصائلها التي كان أبرزها فصيلة "الحلم" وهي الفصيلة التي مكنتها من أن تصبح أعظم قوى في بلاد العرب في القرون السامن الميلادي، كما مكنتها من موقف الحيد في الصراع الدائر بين بيزطة وهامس (القوتان الأعظم آنذاك).. فهي لم تكن تريد أن ينادها مصيرا كمصير اليمن التي أصبحت ولاية حبشية.. وقد أحيط انسحاب جيش أبرهة الحاكم الحبشي من مكة وفشله في الاستيلاء عليها، في الحادثة المعروفة بقصة (أصحاب الفيل) بتجميع لقريش، وعلو من شأنها، فاصبح العرب يسيطرون إلى القرشيين، كما يقول ابن هشام في السيرة النبوية على أنهم "أهل الله، قاتل الله عنهم، وكفاهم مؤنة عدوهم".

لقد أراد أبرهة أن يحول أنظار العرب إلى الجنوب بعد بقلته معبدا مسيحيا فحما في صنعاء. ولما لم ينجح سلما، خرج بجيشه ليهدم الكعبة، ولتحول القبائل العربية بتجارتها وشعائرها عروة عن مكة. وأصاب الطاعون جيشه، وجثا الفيل

على ركبته خارج البعثة المسلمة ورفض الحركة، وهاجمت
الطيور القادمة من ساحل البحر الأخضر بحصباء مسمومة،
وحولتهم لطير الأبايل، التي ما يشبه العصف المأكول.

وكان ذلك العام هو العام الذي شهد ميلاد النور المحمدي في
مكة، ومن صلب قريش.



يرى حرجي زيدان في كتابه "العرب قبل الإسلام" أن اسم
مكة من أصل بابلي آشوري. لأن الكلمة تعني "البيت" في
البابلية، وهو اسم الكعبة عند العرب، وقد امتازت مكة على ما
يحيط بها من البادية ببيوتها الحجرية، وقد أشار الجغرافي
اليوناني بطليموس إليها باسم (ماكوربا). كما جاء ذكرها عند
ديودور الصقلي في القرن الميلادي الأول
ونقع مكة في منتصف طريق القوافل بين اليمن والشام في
أحد فؤدية جبل السراة، وهو الوادي الذي وصفه القرآن الكريم
بأنه "غير ذي ررع"، ولكنها كانت فيما قبل الإسلام مركزا
تجاريا ودينيا هاما، وفي منتصف القرن الحامن الميلادي
استولى قصي بن كلاب وقبيلته قريش على مكة وأخرجوا
منها قبيلة حراة، ولم يصل الباحثون إلى رأي حاسم فيما
يتصل بأصل اسم قريش، وللطيرى بعض طويل يفهم منه أنه
ليس اسم شخص بل اسم سمكة ربما كانت "طوطم" القبيلة، أو
صفة أطلقت على بعض رعائها الأولين مثل النصر بن كلفة

() وبعضهم يشتقها من القرش أى التجمع أو من سكة القرش. ويقول الأستاذ لامانس فى كتابه 'مكة قبل الهجرة' إن هذه المدينة نشأت فى موقع ممتاز عند أطراف نسيا البيضاء وفى مواجهة القارة الأفريقية السوداء، كما تقع أيضا عند منحفض كبير فى جبال السراء التى تقطع الحجاز من الشمال إلى الجنوب.. وقد لسعل قصى بن كلاب رعيم قريش الأهمية الجغرافية والدينية لمكة 'وقد نشأ هذا الرجل عند القبائل العربية التى تقبم عند أطراف البادية، واستطاع أن يترع مكة ابتزاعا من إحدى القبائل العربية التى كانت تسطر عليها من قبله، ويقال أن التبريطيين وعملاءهم من العساسنة قدموا له العون فى هذه الحركة الانفصالية، ويؤكد الأستاذ لامانس حدوث هذه الواقعة، ويستدل على ذلك من اسم هذا الزعيم نفسه، فاسمه فى العربية معناه 'الوافد أو الغريب'. ومن ناحية أخرى ورد اسمه فى القنوس الببطية القديمة، فاسم قصى كان من أسماء الآلهة عند الإنباط، الأمر الذى يدل على صدق ما يقل عن نشأة هذا الزعيم عند أطراف الشام، ثم انحدره إلى مكة فى القرن الخامس الميلادى. واستطاع أن ينشئ جمهورية تجارية دينية تعيد من موقع مكة إلى أبعد الحدود.. وقد كان مجتمع مكة يتكون من طبقتين رئيسيتين، الأولى، ويطلق عليها تسمية: 'قريش البطاح' وهم الذين يتولون أمر الدين والتجارة والسلطة، ويؤوتهم حول الكعبة. والثانية هم ما يطلق عليهم: 'قريش الطواهر' ويقومون بحلب بيوت السادة، وهم حليط من فقراء قريش، ومن الحلفاء للموالى والعبيد، الذين يعملون فى المهن المختلفة، وقد كان من بين هؤلاء السابقين إلى الإسلام: كعبار بن ياسر وأهله وقد كانت أمه يحيا قبل الإسلام، وبلال

الجبشي، وصيهيب الرومي وسلمان الفارسي وغيرهم من
المستضعفين الذين عبرت بهم أريش النبي، إذا كانوا من أوائل
أتباعه الذين رد لهم الإسلام إسمائهم، فقلوا عنهم: "وهل
أقبحه منا إلا الدين هم أرادونا".



(٣)

القرآن

كمصدر للقصاص الديني

ترتبط القصص الديني الإسلامي، منذ بداياته، بالقرآن الكريم
 وما جاء فيه من القصص الذي شكل أهم وادق القصص الديني،
 من حيث هو القصص القرآني "أحسن القصص" و"القصص
 الحق" كما أنه سجل لأنبياء وأعمال الشعوب السالفة وأبيائها
 ورسُلها، وما بحمله تاريخهم من حيرت إنسانية صالحة لأن
 يعتبر بها أولوا الألباب. ويشير الفخر الرازي في تفسيره الكبير،
 إلى القصص القرآني بأنه "مجموع الكلام المشتمل على ما يهدي
 إلى الدين، ويرشد إلى الحق، ويأمر بطلب النجاة" وروى
 الريحشوري في تفسيره بأنه "القصص الذي يرفق باللوب".
 ويحتل قصص الأنبياء المقام الأول في القصص القرآني، لما
 لسير الأنبياء وتاريخهم من دور مهم في التاريخ الإنساني،
 كتجسيد للتصوير الجمعي للبشرية، وكسجل لمسيرة الإنسان
 الروحية الإيمانية، في مقابل المسيرة السياسية والاجتماعية التي
 يعطىها التاريخ السياسي، لذلك ربط المؤرخون القدسي بين جاسي
 تاريخ البشرية: تاريخ الرسل وتاريخ الملوك، كما فعل الطبري
 في تاريخه المعروف، أو بين ظاهري التاريخ الإنساني وباطنه
 حسب تعريف العلامة ابن خلدون. ويضرب قصص الأنبياء
 بحدوده الأولى إلى طفولة البشرية، وسعيها المبكر إلى التعرف
 على قوانين الطبيعة وبواميسها التي تجسد الإرادة الإلهية.

وقصص الأنبياء، والشعوب البشرية، التي صاغها وأعاد روايتها عن مصدرها القرآني الإلهي، "القصص" والرعايش شعاعها في عهد الرسول والمصور التالية وكما رواها المحدثون والإخباريون والمؤرخون في كتب السنة، والسيرة، والتفسير، والتاريخ، والتصوف، وغيرها". قد انتقلت بعد ذلك إلى كتب الأديب العام، وإلى مزيجات التراث الشعبي وتمثل سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية، وكتب المؤرخين القدامى، كالطبري، واليعقوبي، وابن كثير، وابن خلدون، وكذلك كتب تاريخ الأديان، كالمال والنحل للشهرستاني، وكتب للتفسير والحديث، والكتب الخاصة بقصص الأنبياء، تمثل هذه الكتب مصادر القصص الديني الإسلامي بداية من قصص الأنبياء إلى قصص أهل القرى للبلد، إلى السيرة النبوية للثريفة. وقد اتسعت هذه المصادر بعد ذلك، لتشمل كتب الأديب العلم، كالعقد الفريد لابن عبدبر، ورسائل أبي علي القلي، والكمال للمبرد، وغيرهم. كما ضمت السيرة الشعبية في متونها بعض قصص الأنبياء كما في سيرة صخرة. واضاف المؤلفون والمصنفون لهذه الكتب، إلى النصوص القرآنية، التي سوا عليها قصصهم وسيرهم، ما توفر لهم من التراث الإنساني، كقصص التوراة والإنجيل، وهو ما عرف بعد ذلك بـ "الأساطيريات" والأساطير الفارسية والهندية واليوداوية، وهو ما عرف بـ "أساطير الأولين" ثم اخبار العرب القديمة واساطيرها وتاريخ لسانها قبل الإسلام، الأمر الذي جعل من هذا القصص الديني كنزا عيب بالمادة الأولية للإبداع الأدبي، والتاريخ الوجداني للبشرية، في سعيها الدائب للهداية والدين

الحق.

وإذا كان المؤرخون لم ينظروا إلى هذه المادة الفنية، كمصدر موثوق للمادة التاريخية، وإنما كأطار رمزي لبعض الأحداث، فإن هذا الموقف لم يمنع بعض المؤرخين ومؤلفي السيرة القديس من النظرة الرحبة والمستنيرة لهذه المادة الفنية، مثلاً فعل صاحب السيرة الحظيفة، الذي نظر إليها كرفائق لا تدخل في الحلال والحرام، ولا تتعلق بها الأحكام. أما ما يحور الخلاف فيه في نظر علماء الحديث، وما يوجب بالتألي التثقيف والتتقيب، من أجل الوصول إلى صحة الخبر، فهو ما يخص حدود الشريعة ومعرفة الحلال والحرام. وكذلك يشير الدكتور سعد زغلول عبد الحميد في دراسته "الأنبياء والمكتنوب قبل ظهور الإسلام" إلى أن القصد من الدراسة أن يكون تحديد الأطار التاريخي للموضوع يُفتر ما سيكون محاولة معرفة نظرة الإسلام للكلية إلى تسلسل الأنبياء والمكتنوبين، بطريقة تحمل في شأياها فكرة وحدة العقائد والأديان، فكان الإسلام ليس دين التوحيد الإلهي حصص، بل هو عقيدة وحدة الأديان على مر العصور، وهي الفكرة التي تتمثل في أصول الإسلام الإبراهيمية، وهي ختام النبوة بالرسالة المحمدية" لقد ارتبط تاريخ البشرية الإيماني بالأنبياء، منذ بداية الخليقة ووعيتها لذاتها، ويكاد عدد الأنبياء الذي تشير إليه أخبار التراث الإنساني، يفوق الحصر العددي، فالنبوة كما يشير القرآن الكريم مرتبطة بالمشيئة الإلهية وبالوحدانية "يرى الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن يندوا أنه لا إله إلا أنا فاقنوا" وقد بعث الله برسله إلى

كل الأمم، بلا استثناء، يدعوهم إلى عبادته واجتساب الطهوت،
وهؤلاء الرسل الموحى إليهم من الله، والذين سبقوا برسالاتهم،
يعرفهم العلماء من أهل الذكر، فالمقالة الإلهية لم تعاقب الظالمين
والجاحدين من الشعوب السابقة، قبل أن ترسل إليهم من يعلمهم
برسالة الله وتعاليمه "وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في
أهلها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها
ظالمون".

لم يحدد القرآن الكريم إلا أسماء الأنبياء الأساسيين ثم نوح
إبراهيم وموسى وعيسى ثم محمد حاتم الأنبياء عليهم السلام.
عليهم: داود سليمان ويعقوب ويوسف وإيوب، وإسماعيل،
وشعيب، وهود وصالح عليهم السلام. وينتمي هؤلاء الأنبياء إلى
الجزائريين والمصريين والعرب، وهي الشعوب العربية، التي
شكلت الحضارات الإنسانية الأولى في منطقة الشرق الأدنى
القديمة.. لذلك أطلق المؤرخون القدماء لحياهم العنان في إحصاء
عدد الأنبياء. فالمسيرة الحظية تشير إلى أن أنبياء بني إسرائيل
وعددهم ألف نبي.. ويصل ذهب بن منه راوي أساطير الأولين
بعدد الأنبياء جميعا إلى مائة وأربعة وعشرين ألفا أما الرسل فقد
اقتصر عددهم على ما ورد في القرآن الكريم، "لأن الرسل
أخص من النبي، ولأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا"



الرؤية القرآنية للتاريخ: الزمان

ليس القرآن الكريم، كما أشرنا من قبل كتاب قصص عن الأنبياء والرسل والأمم السابقة، كب أنه ليس كتاب تاريخ ينتبع سير الأجيال وتاريخ الشعوب، ولكنه تنزيل من رب العالمين على نبي الإمام صلوات الله وسلامه عليه يفيد من قصص الأنبياء وسير الأولين، وتاريخ الأمم والملل والشمل في الدعوة إلى حياة جديدة مسمية، نهي تجربة المعاصي في جوفها، تاركة التوابع والتفصيل للمؤرخين والرواة.

وبشير القرآن الكريم إلى هذا المصباح صراحة، فهو يخاطب النبي عليه السلام بقوله: "ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك، منهم من قصصنا عليك، ومنهم من لم نقصص عليك" وما كان على الرسول أن يبينه: "قال لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به، فقد لبثت بمكة عاماً من قبله، أفلا تعقلون". فمن انظم من افترى

على الله كذبا أو كذب بآياته، أنه لا يفلح المجرمون". فالقرآن الكريم على أساسه جوهر الرسائل الدينية التي سبقته، والذي تمثل في الحصرات التي شهدت هذه الرسائل، سواء منها تلك الحصرات التي سادت ثم بادت، كما حدث في الحصرات العربية القديمة، أو تلك التي تعرضت فيها الكتب المقدسة إلى تحريفات توافق أهواء ومصالح المسيطرين على هذه الحصرات وللتاريخ على حد تعبير السيد محمد رشيد رضا في تفسير السار" غير مقصود للقرآن الكريم "لأن مسائله من حيث هو تاريخ، ليست من مهمات الدين، من حيث هو دين، وإنما ينظر الدين من التاريخ إلى وجه العبرة بون غيره، لم يبين الزمان والمكان، كما يبين في سفر التكوين". (السفر الأول من أسفار العهد القديم في الكتاب المقدس التوراة). والأمر كذلك في رأي الدكتور محمد احمد حلف الله في كتابه "القرآن القصصى في القرآن الكريم" إذ يرى أن القرآن الكريم لم يقصد إلى التاريخ إلا في القليل البادر الذي لا حكم له، وأنه على العكس من ذلك، عند إلى إيهام مقومات التاريخ من زمان ومكان. ومن هنا يتبين أن القوم قد حكموا للقصة حين شغلوا أنفسهم بالبحث عن مقومات التاريخ، وهي غير مقصودة، وأعملوا للمقاصد الحقيقية للقصص القرآنى.

وفي دراسة مهمة للدكتور عبد العزيز كامل أستاذ الجغرافيا البشرية، والمفكر والمباني المعروف، عن "القرآن والتاريخ" يحدد علاقة القرآن الكريم بعناصر التاريخ من زمان ومكان وأحداث وشخصيات وأبطال ومناهج للتاريخ في جمع

المعلومات وتحقيقاتها وتفسيرها. وصناعة التاريخ، بمعنى استلزامه في صناعة المجتمعات الإنسانية.

يدور القرآن ثلاثة أنواع للزمان، هي: الزمن الكوكبي العظمى، والذي تقوم عليه حسابات البشر في معاشهم، كما تقوم عليه حسابات العبادات كالصوم والصلاة والزكاة، وأعمار الحشرات ودورات ازدهارها وسقوطها، يقول الله تعالى: "أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون، من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا، ولا يسأل عن ديوبهم المجرمون.." كما يقول تعالى عن منكرو البعث: "ولدى قال لو لديه لب لكتب لك انتد انسى ان أخرج وقد خلت القرون من قبلى، وهما يستغيثان الله، ويلك امن ان وعد الله حق، هيقول ما هذا إلا أساطير الأولين". وإلى جانب اهتمام القرآن الكريم بالزمن الكوكبي، فقد اهتم بما قبل هذا الزمان، أى ما قبل خلق الكون والإنسان، كما اهتم بما بعد ذلك الزمان 'يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار'.. واهتم للقرن بالزمن النفسى، أى بالاحساس البشر بالزمن، ويضرب الله له مثلا بحوار يدور يوم القيامة:

قال: كم ليتم في الأرض عدد سنين؟
قلوا: لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين.
قال: انى لبثتم إلا قليلا لو انكم تعلمون انفسكم انما خلقناكم عبثا وانكم اليها لا ترجعون".

ويستوقف النظر الفارق بين معالجة القرآن لأجزاء الزمان، ومعالجة سفر التكوين في العهد القديم لها.. حيث ورد في الإصحاح الخامس من سفر التكوين ما يسمه: "هكذا كتاب مواليد

انهم، يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله، ذكرا وانثى خلقه الله وباركه، ودعا اسمه آدم خلق. سربة آدم اسما اسما، وعمرا عمرا حتى طوفان نوح، ثم تتعاقب سلاله نوح اسما اسما وعمرا عمرا. ويحب الباحث موريس بوكاي في كتابه "دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة" بقوله: "ولكى نكون أكثر قربا من الحقيقة، لنقل ان خلق العالم بحسب هذا التقدير، البحرى يحدد تقريبا بسبعة وثلاثين قرنا قبل الميلاد. وهناك استحالة وجود اتفاق واضح بين ما يمكن استنتاجه من المعطيات الحسابية لسفر التكوين الخاصة بظهور الإنسان، وبين أكثر المعارف تأسسا في عصرنا".

ويسر الدكتور عبد العزيز كامل سورة يوسف في ضوء أسلوبين في معاملة الرسم جمع بينهم القرائن في تلك القصة. فهي موقفه عليه السلام من امرأة العزيز لا تحدد المدة في القصة ولكن يشير الى الزمن اشارات مجملة: "حتى حين" و"بضع سنين".. اما عندما يتصل الزمان بالتخطيط لإفك الناس من المجاعة المنظرة، فيبدو حسب الزمن دقيقا، قال: "زرعوا سبع سنين ذابا، فما حصدتكم هروء هي سباه الا قليلا مما تأكلون"، ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدتمن لهن الا قليلا مما تحصنون، ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يبعث الناس وفيه يعصرون".. فقد ارتبط حساب الزمن هنا كما يقول الدكتور عبد العزيز كامل بالتخطيط والعدل، كما ارتبط افعال الزمن بالتنسيق والظلم، وكما تعريف الزمان وتذكيره، عاملا ساعدا على إبراز الظاهرة الاجتماعية، ويبدو من هذا كيف تخدم الحقيقة التاريخية هدف القصة في القرائن

الرؤية القرآنية للتاريخ: المكان

. وكما أن القرآن الكريم كما اسلفنا ليس كتاباً في القصص أو التاريخ فهو أيضاً ليس كتاباً في الجغرافيا، فمفهومه بالمكان يصبغ وينتجبه إلى النحوء الإسلامية، مركز التاريخ الإنساني في القرآن هو البيت الحرام، أول بيت وضع للناس وحوله منطقة القلب التي ترتبط بها شعائر العبادة الاسمية من الصلاة والحج: الوحدة والتوحيد، والكسب الحلال للابتغاء الحلال وأوراقهم من الثمرات لعلمهم يشكرون* وحولها دائرة العرواات حيث يتمثل الدفاع عن العقيدة وحميتها، وتليها دائرة الاعتبار في القصص الممتد على المحورين الشمالي والجنوبي، ثم دائرة واسعة غير محدودة تمثل وجوب السير في الأرض لمريد من الاعتبار، سيرا إلى مطالع الشمس ومعاربها، وعلا في مجال

الحقبة، والإنشاء والتعمير، والحصول على مزيد من العلم مع التواضع الدائم لله.

ويقتنع الدكتور عبد العزيز كامل في دراسته 'منحل جغرافي إلى قصص القرن الكريم' تفاصيل هذا الإجمال.. فالبيت الحرام الذي يمثل منطقة القلب في القصص القرآني والتاريخ الإنساني، ارتبط به أكبر عدد من الأسماء متجمعة: البيت، مكة، مقام إبراهيم، الصفا، المروة، عرفات، المشعر الحرام، ثم ما جاء بصعته لا باسمه كالغاز الذي أوى النسي في حجرته ثم 'نطاق الغروات' الذي يحيط بمنطقة القلب، المدينة، وقد وردت في القرآن الكريم باسمها كما وردت باسم يثرب، وهزوة بدر وقد اختصها القرآن بوردوها في ثلاثة أماكن: فهي بدر وهي العدو الدنيا والعدو القصوى.

وعلى محيط دائرة القلب أو قريبا منها توجد اليمس، العراق، الشام، مصر، وفي نطاق هذه الدائرة وقعت معظم أحداث القصص القرآني.. هي جنوبى اليمس وقعت أحداث قصة قوم عاد ونبيهم هود.. 'وانكر لحا عاد إذ أنذر بالآحطاف' وهي جبال الزمل باليمس، وقد كانت موطناً عجا، ثم ساء لتي كان لهم في مساكنهم أية 'جنتان عن يمين وشمال' ومارالت أثار سد مأرب والجنين بالية.

وعلى المحور الشمالي حيث طريق التجارة، تقع قرى قوم لوط التي أشار إليها القرآن الكريم باسم المدينة، والصيل المقوم، والموتفكات، ثم مدنين، التي يسكنها أصحاب الأيكة. وديار شعوم لو أصحاب الحجر، الذين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا أسنن،

والذين أخذتهم الصليحة مصيحين.

ثم يتفرع محور الشمال في الجغرافيا القرائية إلى ثلاث شعب.. الأولى إلى الشمال، حيث المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله.. ثم بلاد الروم، الذين غلبوا في أسمى الأرض وهم من بعد عليهم سيفليون.. وقرية سورة يامسين التي يرى اليرمخشري هي نغسيره ابها ابطاكية.. وامدادا لقوس بلاد الشام الموصل للعراق، هناك بابل، وتتصل بالعراق قصص نوح وإبراهيم، كما يتصل بالشام قصص إبراهيم ودرينته.. ثم إلى الشمال العربي حيث مصر، التي افتخر فرعون بملكها "اليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟" وهي الطريق إلى سيناء؛ "وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين" وتزنيط بمصر قصص إبراهيم، إسحق وبنيه، إسماعيل، يوسف، موسى وعيسى ومحمد في ليلة الإمراء وبولده إبراهيم من ماريه القبطية.

لما القصص القرآني التي لم يحدد مكانها، فأبرزها: قصة آدم، قصة أهل الكهف، وقصة بدء التاريخ الإنساني في القرآن هي قصة الأب الأول آدم. "يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منه رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذي تساملون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا.." وتزد قصة نبي البشرية الأول في مطلع سورة البقرة في القرآن الكريم، كما تزد في سفر التكوين الذي يبدأ به العهد القديم من الكتاب المقدس. وتلتقي القصة التوراتية مع القصة القرآنية في بعض الجوانب، ثم تختلفان في نواح جوهرية.. ويأتي الاتفاق في وجود الأب الأول والأم الأولى، وهي كرامة البداية، ثم في

تعرضيهما للاحتيال، أما الحلاف الجوهري، فهو في قصة "نوبة" حيث عثر الله لادم وتاب عليه، يقول تعالى في سورة طه "وعصى ادم ربه فحوى، ثم اجتبا ربه فتاب عليه وهدى..". وقد وردت نوبة ادم في القرآن مرتين، الاولى في سورة طه للمكية، والثانية في سورة البقرة المكية كانت عند ادم ووجه حرية الاحنير وكانت تجربته الاولى نجاحا: عصى علمه ربه الاسماء، ثم امره ان يحبر بها الملائكة، فقام بأمر الله، ما صل ولا نسي، "وعلم آدم الاسماء ثم عرضها على الملائكة فقال: انبؤسى باسماء هؤلاء ان كنتم صادقين، قالوا: سبحانك، لا علم لنا الا ما اعلمنا انك انت العزيز الحكيم، قال: يا ادم انهم باسمائهم، فلما ابهم باسمائهم قل لهم اقل لكم انى اعلم بعباد السماوات والارض واعلم ما تسبون وما كنتم تكتمون" ثم تحي حرية الاحتيال وهي التجربة الثانية موسوس لها الشيطان ليدى لهما ما وورى عصب من موافقتهما، قال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا ان تكونا ملكين او تكونا من الخالدين". كانت التجربة صراعا بين الطموح بكل معرياته، وبين صريح أمر الله، كانت تجربة اولي في حرية الاحتيال، تب منها ادم وقيل الله نوبته، وتلقى من الله كلماته، وجعله طبيعة في الارض، وهو نبي مكرم، هذا بعد ان كفل له في الجنة امورا هي حاجات الانسان الاساسية ان لك الاتجوع فيها ولا تمرى فليس هناك حطية سابقة، فنوبة الله على ادم سبغت وكلمات الله تنبيه الطريق لا لعنة. لا عفوية. لا عداوة بين الرجل والمرء ولا بين الانسان والارض، ولا بين الانسان والحيوان، وهذه الصورة القرآنية تحالف ما يصوره الإصحاح الثالث من سفر التكوين".

القرآن وأبطال التاريخ المجهولون

عز من القرآن الكريم قصص الأنبياء ضمن مفهوم يؤكد على بشريتهم من جهة وعلى اتباعهم لأوامر الله من جهة ثانية، يقول الله تعالى على لسان نبيه الكريم: "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما ألهم الله واحد، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً" ويقول تعالى عن الأنبياء والمرسلين المبشرين: "وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق" .. وهم جميعاً سيلاقون الموت، وتبقى رسالاتهم، كفهم جميعاً خلقوا من تراب.. وشيع عصمتهم من اضطهاد الله لهم، "إن الله اصطفى آدم ونوحاً وإبراهيم وآل عمران على العالمين، ذرية بعضها من بعض، والله سميع عليم" .. وهذا المفهوم للمصمة النبوية البشرية يخالف مفهوم النبوة في أسفار العهد القديم.

ومما تفرد به القرآن الكريم غايته بالأبطال المجهولين في التاريخ، فقد اختصهم بعدد من الآيات، وأشاد بمواقفهم، وسلط عليهم من الضوء ما تجاوز ما سلطه على بعض الأنبياء، وقد لفت هذا الأمر اهتمام بعض المفسرين والمؤرخين والباحثين إلى هذه الشخصيات التي لم يتوقف عندها كتاب الملاحم ورواة الأخبار، وحاولوا أن يتقصوا أخبار هؤلاء الأبطال المجهولين: ما هي أسماؤهم، ومتى عاشوا، وابن؟ كما جذبت قصة أهل الكهف وهم من هؤلاء المجهولين اهتمام عدد من الباحثين لتحديد المواقع الذي كان فيه الكهف، والذي رأى البعض أنه في موقع قريب من العاصمة الأردنية عمان، بينما رأى آخرون بأنه على قرب افسوس بآسيا الصغرى، وإن كان القرآن الكريم، كما يقول الدكتور عبد العزيز كامل، يوجه غايته أساساً إلى العبرة الأخلاقية دون تحديد الأشخاص، إلا حيث تقتضي العبرة ذكرهم، وقد تجاوز القرآن الكريم في قصص هؤلاء الأبطال المجهولين عناصر تحديد الأسماء والأماكن والأزمنة.



وأكثر قصص الأبطال المجهولين القرآنية تفصيلاً هي قصة "مؤمن آل فرعون" التي تبدأ بقوله تعالى في سورة غافر: "وإِذْ قَالَ مُوسَى لَأُفَرِّقَنَّ بَيْنَكَ وَلِأَذْرِبَ الْكَاذِبِينَ" (آل عمران: ٢٠٥) وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه، وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يحدثكم، في الله لا يهدي من

هو مسرب كذاب" ثم يستمر السرد القرآني للقصة ثماني عشرة آية تحصل خطاب الرجل المؤمن من آل فرعون إلى قومه منذراً إياهم ومحذراً من بأس الله إذا جاء، ومن يوم مثل يوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، ثم يأتي ختام القصة بعد عرض مشاهد يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد لتؤكد أن الله ينصر رسله وينصر الذين آمنوا في الحياة الدنيا والأخرة "والقصة مما تترد به القرآن، وهي تدرس في الدفاع عن الحق والدعوة إليه، لها فيها للمؤمن إلى تذكير قومه بالأخرة، ثم ذكرهم يقوم نوح وعاد وثمود، وربط جهودهم بما حدث من آياتهم بعد وفاة يوسف "حتى إذا طغى فلقم لن يبعث الله من بعده رسولا" وكيف وقف المؤمن يحارص فرعون وهو بأمر وزيره هابيل أن يمس له صرخاً، يبلغ به أسباب السماوات ليطلع إلى آله موسى، ثم دعا قوم فرعون إلى اتباع الحق. وصرح الرجل بإيمانه بعد أن كان يكتمه، وحذر قومه منة سيئات ما مكروا وسجى الله المؤمن وحاق بال فرعون سوء العذاب".

وتعرض سورة يس قصة مؤمن آخر دافع عن رمل عيسى الذين جاءوا إلى مدينته، فلما علم بهم، وبما يحملونه من هداية، ومن دعوة إلى الله، جاء من أقصى المدينة يسعى ليقول لقومه: "اتبعوا المرسلين، اتبعوا من لا يمانكم اجرا وهم مهتدون" وتتضمن سورة الكهف قصص: أهل الكهف، وصاحب الجنتين الذي اختار بما يملك، ثم يأتيه صاحبه المؤمن لينبئه على الصواب ويحذره من عاقبة الجحود، ثم قصة العبد الصالح الذي نعلم منه موسى، وقصة ذي القرنين: "ومع أن المدار للرؤوس لهذه

القصص جميعها هو الإيمان بالله تعالى، إلا أن مثلث هؤلاء الأبطال في المجتمع متنوعة، وتمثل الحرف الرئيسية، زراعة وصناعة وتشبيذ (بناء).. وهذه البطولات المجهولة ممتدة ولا تزال تظهر في بصرة الحق، يقول الله تعالى: "من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بذلوا تديلاً" وجزاء الله لكل عامل من هؤلاء قائم:

"فاستجاب لهم ربهم أني لا أصيب عمل عامل منكم، من ذكر أو أنثى، ببعضكم من بعض، فليس هاجزوا من ديارهم والودوا في سبيلى وقتلوا وقتلوا، لاكثرى عنهم سيناتهم ولاأحلتهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثواب من عند الله والله عده حسن الثواب". وهكذا ندعو الآيات إلى متابعة رحلة الحيز والعمران، وبناء الحياة الاجتماعية على قاعدة من العمل الصالح، منيرة الطريق أمام البطولات الجديدة التي لا تقتصر على مواقع محددة من المجتمع.

"وصفوة القول أن البطولة في القرآن لا تقتصر على الأنبياء، وإن كان لهم فيها النصيب الأوفى، ولا تقف كثيراً عند الملوك، وإنما تمتد مظلتها لتشمل الأبطال المجهولين والجموع المؤمنة. وإذا كانت العناية قد رأت في الاتجاهات التاريخية المعاصرة بحركات الشعوب والجماعات الإنسانية، وفيها الكثير من البطولات المجهولة، فإن قطاعات التاريخ التي عرضها القرآن الكريم تصمم هذه جميعاً وتتسع له".



القرآن .. وأساطير الأولين

للغرب مثل بقية شعوب الأرض أساطيرهم، وقد مروا
كثيرون تلك الشعوب "بالمرحلة الأسطورية" التي يعرفها
معصر الباحثين بأنها قطعة من حياة الروح التي تعكس تفكير
الشعب العلمي، ولعلهم هو أسطورة الإنسان العرء، كما أن
الأسطورة هي معصرة العقل البدائي الأولى، كما أنها هي الرحم
الذي خرجت منه هون السرد الشعرية والنثرية، كالملمحة،
والتراجيديا، والحكاية، وفي نزلنا العربي - تنتمي الأسطورة
والقصص معا إلى مرحلة الثقافة الشفاهية، التي ما زالت مستدة
حتى عصرنا.

وهي الأدب القيمة فالت أسطورة مقام العقيدة بمعناها
الشامل والمقدس، كما كانت لها وطبقها الاجتماعية والقانونية
و الأخلاقية، وهي هي صيغتها الأولى كانت رمز للجابين،
أحدهما اعتقادي تكون فيه الأسطورة أداة للمعرفة والكشف

والفهم والتنظيم، والأخر طقسي يستهدف استرضاء الآلهة والتعبّد لها، فالأسطورة والحالة هذه هي التفكير هي القوى البدائية الفاعلة الغائبة، وراء هذا المظهر المتبدّي للعالم، وكيفية عمل هذه القوى وتأثيرها وتربطها مع عالمنا، ولهذا كله يكاد الباحثون يجمعون على أن الأسطورة كانت كل شيء بالنسبة للإنسان القديم أو البدائي، كل تاملاته وحكمته ومنطقه وامتلأ به في الكشف والمعرفة ووضع نظم مفهوم ومعقول للوجود، يقتنع به هذا الإنسان ويجد مكانه الحقيقي ضمنه، ودوره الفعّال فيه، إنها الإطار الأسبق للتفكير الإنساني المبدع الخلاق، الذي قادنا على طول الطريق الشاقة التي انتهت بالعلوم الحديثة، والمسمّيات التي تفرع بها حضارتنا القديمة، إنها أداة الإنسان الأقدم في التفسير والتعليل، كانت لبيه وشعره ووجهه، كما كانت شرعته وعرفه وقلوبه".^(١)

وقد ورد مصطلح الأساطير في القرآن الكريم مرتبطاً بالتصورات الخرافية الوثنية، وليس بمعنى الأباطيل والخرافات والأكاذيب، كما فهم بعض المعاصرين المتأخرين، وكما أصبح دارجاً في الاستعمال اللغوي المأدب الذي يشير إلى الأسطورة بمعنى مالا وجود له في الواقع، رغم أن الجذر اللغوي للكلمة يشير إلى معناها الصحيح فالفعل الثلاثي "سَطَرَ" يشير إلى معنى الاعتقاد والنص والتأليف، الذي يقود إلى التكوين والتسطير والنقش، ويشير السياق القرآني إلى أن أساطير الأولين كانت تتلى على الناس أيضاً بمعنى تداولها شعابها. وقد وردت كلمة أساطير في القرآن الكريم بصيغة الجمع دائماً وفي السور المكية وحدها، أو في السور الأولى لنشر الدعوة المحمدية، وفي

مواجهة المعتقدات الجاهلية الوثنية، قال تعالى: "وقالوا اساطير الأولين اكتتبها، فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً". وقد سبقت الإشارة إلى قصة النصر بن الحارث وما كان يحدث به مادة قریش من أساطير العرب والأسم القديمة. فالأسطورة هي المفهوم القرآني، تشير إلى المعتقدات الدينية والثقافية للأزمان العائرة والأسم البائدة، والتي تم تدوينها تسطيرها لهدف ديني وثقافي، ولتصبح نصاً مقدساً عند الشعوب السابقة، وإن كان الأصل فيها التداول الشفاهي، أثناء الطقوس والشعائر، والشفاهية هنا لا تتناقض مع الكتابية

و قد استخدم المشركون مصطلح الأساطير في حربهم الفكرية والدينية ضد القرآن الكريم بمعنى سلفي، بمعنى الأحداث الباطلة، والأقاويل التي تنتمي إلى رحرر القول. وقد نسي المصرون وعلماء اللغة، بعد ذلك، هذا المعنى، فأصبحت الأسطورة عندهم، هي القصة الدينية التي لا أصل لها من وحي أو حلاقة، وهي بصور كتابية أو شفاهية ذات لغة شعرية ممتقة ورحررة، تنسب إلى الإبداع الجماعي، الذي نقلها عن أحداث الأولين وحرر اختلهم، أو هي سجع الكهان كما يرى بعض المفسرين. "ولكن ما إن اطعم العرب إلى هدف الرسالة السحرية، حتى احتل مصطلح الأساطير من جميع الصور الدينية بلا استثناء. وأصبح القرآن الكريم كتب الله العبرل الذي لا يأنه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه، وبات دين الاناء ومعتقدات الأجداد هي (أساطير الأولين) بطوعها الوثنية وفولها القصصية، فقد كانت معظم المعتقدات والمعروف الجاهلية مصابغة صبغة قصصية وبصرف النظر عن المحتوى

المعقدي أو الدلالي للأساطير، فإن الذي يعنينا هو تأكيد للقضاء على جانبها الحكائي أو انطازها القصصي. باعتبارها الجانب الحي الباقي من الأسطورة، حيث تموت وظائفها الاعتقالية والدينية والمعرفية^(١).

وقد وقع طعام الحديث، ورواة الأخبار، والفقهاء المسلمون في عصر التكوين موقفا متشددا من الأساطير العربية القديمة، يدافع من التعرج والتنوع عن روائتها، وتزنيدها أو تنويرها، اللهم الا عند ضرورات قصوى، مثل شرح شعيرة اسلامية، أو بون من الشعر، أو مسألة بلاغية، رغم أن التكوين تم بعد استقرار الدين، وبعد عصر الفتوحات الكبرى. وعندما سجل محمد بن اسحق أول رواية للسيرة النبوية، بعض هذه الأساطير، جاء ابن هشام فاستبعد هذه المادة الأسطورية. ومن المؤكد أن معظم التراث الأسطوري العربي قد صاع فيما صاع من التراث الأدبي العربي السابق على الإسلام، بعد أن مر في عصر التكوين بالمصفاة الإسلامية الدينية والثقافية، وبإسبرت بعض هذه المادة الأسطورية إلى كتب الإسرائيليات والكتب التاريخية الأولى، وموسوعات الأئمة العام المبكرة وصاع على العرب علم غزير على حد تعبير الأصمعي الراوية للمعروف، لكن هذا الأمر لم يقعد الباحثين المعاصرين عن التفتيح والبحث عن بقايا المادة الأسطورية في المصادر القديمة .



١٥: التراث القصصي في الأدب العربي د محمد رجب النجار.

(٤)

بدايات

القصص الديني الإسلامي

يعرف القمصن الديني الإسلامي في التراث العربي،
اختصاراً، بـ 'القمصن المسجدي' لانه يشا وبما هي جانيبه
الرسمي والشعبي، فوق منابر المسجد ابتداء من العصر النبوي،
والعصر الراشدي الي العصر التركي العثماني الذي شهد هو
والعصر المملوكي انتاج غزيرا شعرا وشرا في القمصن الديني
الإسلامي، وخاصة فيما يتصل بالسيره النبويه.

وهذا يعني ان للقمصن الإسلامي تاريخا طويلا، تفرع فيه
وتشعب، وتعدلت فيه وطافه وتبدلت، ولقيمت السلطات بشأنه
وتعزقت. لكنه ظل صامدا في جانيبه الرسمي والشعبي: الرسمي
تحميمه الدولة، والعقهاء، نون ان يجمع ابتداء من القرن الثاني
(الهجري) في ان يكون له جمهوره، اما الشعبي فقد نما وتطور،
هيا وبسب ووظيفا، حتى استأثر بجمهور المسلمين، بزعم
الحزب الشعواء التي شنها عليه النصارى، والعقهاء، ورجال الحصة
(المحسبون) علي مر العصور. فقد كان القرب التي نفوس
المستمعين، من حيث موضوعه، لصداه ومحبته، كما كان
القرب اليهم من حيث جماليته السريه، وسيقره الازاء
القمصني الشده في قصاصي العامة (التراث للقمصني في
الآداب العربي ١٠ محمد رجب النجار).

ولعل البنية اليهوديه هي لزوم طليبات التوحيدية احده لا

بالمرد القصصى، فقد ورثت أسفار العهد القديم (التوراة) التراث القصصى للشعوب التى احثك بها المصريون كالمصريين، والبابليين، والسومريين، والكهتلانيين، منذ عصر الاسطورة التى كانت الإطار الأقدم والمحبب لسرد القصص المقدسة عند هذه الشعوب، والتي كانت تحتوى داخلها (الاسطورة) على المعتقدات البدائية الدينية وعلى خبرات الشعوب القديمة فى المعرفة، ثم جاء الإنجيل ليُريث ذلك التقليد الدينى اليهودى، فى الاعتماد على السرد القصصى، فى بث تعاليمه وإلواكه الروحية. ثم ورث القرون الكريم، بإيداعه الحاضر، والذي لم تكن القصة الدينية فيه، مقصودة لذاتها، وإنما لوطيعتها الدينية والتربوية، ورث القصص الدينى الذى عرفه اهل الكتاب قبل الإسلام.

لقد سمع النبى صلى الله عليه وسلم لبعض صحابته برواية بعض القصص الدينى القرآنى فى مسجده فى المدينة، باعتبار هذه القصص من القصص الحق، لا قصص الأسفار والحرفات التى كان بعض العرب يقصها ليُستأنس بها الناس، وكان الصحابى "ميم الذارى" أول قاص فى الإسلام يقص على الناس القصص الدينى بعد وفاة الرسول، ثم كان "عبد الله بن مسير" على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنهم.

ثم ارتبط القصص الدينى القرآنى، بعد ذلك، بالوعظ المسجدى، حيث أصبح الهدف من سرد القصص النبوى هو "القصص والوعظ والتذكير" ويقول ابن الجوزى أن للقصص الدينى ثلاثة أسماء هى: قصص - تذكير - وعظ. فالقاص هو الذى يتبع القصة العاصية بالحكمة عنها، وشرحها، وذلك هو القصص،

وهو في الغالب، ممن يروى عن أخبار الأولين. لأن في إيراد أخبار الأولين عبرة لمن يعتبر، وعظة لمن زجر، واقتداء بصواب لمبتغي. ولما التذكير: فهو تربية الخلق نعم الخالق عليهم، وحثهم على شكر نعمته، وتحذيرهم من مخالفة أوامره وبواهي. ولما الوعظ فهو: تحوير يرق له القلب. وقد أصبح اسم القاص يجمع بين الصفات الثلاثة وقد أمر القرآن الكريم بهذا كله، قال تعالى: "فالقصاص القصص" وقال تعالى "فأعظمهم" وقال تعالى: وذكر في التكري تتفع للمؤمنين".

ولم يقتصر القصص القرآني، على الوظيفة التذكيرية والوعظية وحدهما في عصر الحلفاء الراشدين بل أنه أيضا خرج من حلقات الوعظ والتذكير في المسجد ليرافق الجيوش في فتوحاتها الإسلامية، حيث أصبحت هناك حاجة إلى هؤلاء القصاص لتثيبت القلوب، وشدد الهمم، فكان القصاص المصاحب لجيش الفتح بحث المجاهدين على الشفات والاستيصال، كما يوبخ من تراوده نفسه على الكفر والتراجع وكان طبيعيا أن تغطي الوظيفة التحريضية على قصص تلك المرحلة، قصص الفتوحات، فلما انتهى دورهم بتوقف قصص الفتوحات، عادوا إلى أوطانهم، أو استقروا في الأمصار الجديدة يواصلون القصص، وانتهى بهم المطاف إلى أن أصبحوا قصاصا محترفين، واصلوا دورهم القصصى لغايات دينية كما كان أمرهم من قبل.



صورة القاص في التراث

كان للامة قصاصهم وواعظهم، كما كان الخاصة ايضاً، وللخاصة السبق في خلق وطبيعة القاص، الواعظ، المدكر ثم شاركوا العامة بعد ذلك مجالسهم وحلقات قصاصيهم، خاصة إذا كان صاحب المجلس من مبادئ القصصين والمدكرين. لكن هذه المجالس تحولت رويداً رويداً إلى مجالس للعامة، فرضوا عليها تفاليدهم الخاصة، ولم يعد المحدث القاص هبها من البداية، بل أصبح واحداً من العامة، يتحدث من القصص مهية يعيش منها، وأصبحت تلك المجالس أقرب ما تكون إلى حلقات القصص الشعبي، حيث تقتصر روادها على العامة والنساء، وحيث تحول القاص إلى ما يشبه الممثل الممزج في عصره ورغم أن الغناء وعلماء الخاصة استكروا هذا النوع من القصص الشعبي الذي، إلا أن الجمهور نطق بهذا اللون من

القاص، الذي رأى فيه نوعاً من الأداء الفني الشعاعي، يغضب
عند هذا الجمهور المحروم عاطفته الدينية والفنية معاً!
وكان انقضاء قد حددوا الشروط التي يجب أن تتوافر في
القاص يـ:

- حفظه للحديث النبوي ومعرفة بصحيحه من سقيمه
- معرفته بتاريخ الأمم وسير الأولين.
- حفظه لأخبار الرهاد والمنقبين، فهذه هي الدين فصاحة
- لسانه ومعرفة باللغة العربية وعلومها، إضافة إلى السلوك
- القويم، وتترعه عن الشقاق وأكل أموال الناس بالباطل، وتجنبه
- للعموم والمراح معهم، ولا يرى إلا في ساعة وعطه حتى يظل
- مؤمراً فيهم، مهيباً بينهم، فإنه متى حالطهم أو مازحهم ذهب
- هيئته من القلوب.. ومتى كان القاص عالماً بتفسير القرآن
- والحديث وسير السلف والعفة عرف الجادة ولم تحف عليه بدعة
- من سده، ودله علمه على حسن التقصد وصحة الدقة، حسماً بقول
- ابن الجوزي، الذي يستمر في رسم الصورة المثالية للواعظ أو
- القاص أو المذكر، من وجهة نظر «خاصة» هيبنى على الواعظ
- أن يحصر قصصه في طبر الواعظ المرفقة والزواج
- المخوفة، وأن يمس كلامه الوعد والوعيد، والتشويق إلى الجنة
- والتحذير من النار، والأمر بالمحافظة على أركان الإسلام، ونهر
- الوالدين وصلة الرحم وفعل المعروف والنهي عن المنكر.
- وأممك الناس عن أصول الكلام، وعصا فيصير عن الحرام..
- وتبكي موله إلى المخوفات أكثر دعا أن غلب الطمع على القلوب،
- ولا بأس في رشد الانبياء الرهيبه، دار من أشعر حكمة، وإن

يتكلم في الأصول ويترك الفروع، وإن يدعوا للناس إلى الترحم على الصحابة، ويكف نفسه عما شجر بينهم بمعنى أن يبتعد عن التقصص التي تصور الصراعات التي حدثت بين الصحابة فإن وعظ سلطانا تلطف غاية للطف، فلذكر الوعظ عاما لواء السلطان منه نصيبا. وقد كان في السلاطين من يواجه بالإنكار فيصير، وليس ذلك بحرام ولكن التلطف أولى، قال عز وجل "فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيًّا" فإن قيل: فما نقول في قوله عليه السلام: "الفصل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر" فالجواب أنه إذا كان الجائر لا يقبل الحق جاز أن يورى عن الحق حوها على الناس. والأفضل أن يبداه بالحق، ومتى ما أمكن التلطف فلا وجه للعنف. [فيلا عن د. محمد رجب المجر - التراث القصصي].

ولكن هذه الصورة المثالية للأعظ للقاص الذي هو جزء من السلطة السياسية والدينية، لم يكتب لها الانتشار كثيرا، إذ غلبت عليها الصورة الشعبية لتلك الشخصية، كذلك التي جاءت بعض الإخبار والأقوال عنها في كتب التراث ففي كتاب "البحلاء" للجاحظ، يذكر على لسان أحد المكثين [المحتالين على الرزق بالتسول، وهي طائفة لها نواترها وأشعارها وأخبارها في التراث] أنه لو ذهب ماله لجلس قاصا.. فاللحية وأقرة ببضاء، والخلق جهير "على الصوت سليم النطق" والسمت حسن "حسن الهيئة والمظهر" والقبول على واقع "عده قبول وحضور كما يقال عن العمدل" إن سألت عيني السمع أجابت "قدره على التقصص والتسويل". ثم يصيغ الجاحظ في كتاب القبيس والقبيس، من من تمام الة للقصص أن يكون القاص اعمى، ويكون شيخا،

بعد مدى الصوت، ويرى عالم آخر أن القاص الأعمى لحسن من المبصر، حتى لا تقع عينه على مستحسنت النساء، اللاتي يحصرن مجلسه أو يتحلقن حوله، ويحدد اخرون الهيئة التقليدية للقاص باطالة اللحية وعظم العمامة، ليزيد من وقار نفسه في أعين من يحضر مجلسه . ويقل ابن الجوزي في كتابه عن "القصاص والمنكرين" عن أبي الوفاء بن عقيل "إن على القصاص أن يلبس متوسط الثياب، لكي يقتدى به، فكل قول رى، وكما لا يحسن النساء إلا من الجورى الحرد، ولا العزل إلا من عاشق، ولا النوح إلا من ثاكل، ولا ذكر الأوطى إلا من غريب، فكل ذلك لا يقبل الوعظ إلا من متقشف متردد متورع، من وراء مدرعة صوف، ومخافة جسم، وقلة قوت، اشتغالا عن البدن بمعدائل النفس كالطبيب الظاهر للحمية، فأما من يخرج بطيبا فاخر الثياب، مداحلا للسلطين، فكيف تستجيب له القلوب؟ إنما يسمع من السمار، وأربما كانت الصور والسمات تظهر والهيئة تؤثر أكثر من الألفاظ، وقد قيل: "من لم تنعمك رؤيته لا تنعمك موعظته". ويحذر من اللغات الحسة، والابتهاج بالحركات والإشادات الأنيفة، لأنه متى كان القاص أو الواعظ شاب متريبا للنساء في ثيابه وهيئته، كثير الأشعار والحركات والإشارات، ويجلس مجلسه النساء فيحذر منه، وهذا منكر يجب منعه، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح، ولا ينبغي أن يعط إلا من ظاهر الورع وهيئته السكتية والوقار، وريه زى الصالحين".



لقد تحولت صورة القاص الواعظ والمنكر، كما تحول مجلسه،

عندما أصبح القاص وجمهوره من العامة، فلم يكن يميز واعظ العامة عن جمهوره الا قليل من العلم الديني، وكثير من المرويات الشعبية عن الانبياء والاولياء والمتصوفة. ويرد الدكتور محمد رجب الجاز في كتابه المهم "التراث القصصي في الادب العربي" استنادا الى مصادر تراثية وخاصة ما كتبه ابن الجوزي في كتابه "القصص والمذكرات" يورد تفاصيل ما حدث لشخصية القاص ولما جلس القصص الديني الشعبي، من تحيرات جعلتها تقترب من حقائق الفرجة المسرحية التي عرفتها مجتمعات عربية كثيرة، حتى عهد قريب جدا، مثلما كان يحدث في موالد واسواق المغرب العربي.

فمع بروز طاهرة قصص العامة في العصر المملوكي، شرع الحوام في تزيين المنبر الذي كان يجلس عليه القاص بالحرق الملونة، وذلك لإضفاء جو خاص على المكان، هو جو الحزن، والخشوع، والتخويف والتخدير، بحيث يكون الجو مناسباً لما يقصه القاص من قصص ديني يدور حول هذه الموضوعات، وعندما استنكر الفقهاء عملية تزيين المنبر، نزل للقصص عنه وجلسوا على كراسي خاصة معدة لهم، واطلق على هؤلاء القصص لقب "اصحاب الكراسي" ولم يتحل القاص او جمهوره من صنع ديكور خاص، بفقر ما سمح به حالهم، فعلقوا حلق كراسي للقاص منجاة صلاة مرسوم عليها صورة الكعبة، او المسجد النبوي وهذا من جنس ستر الجنان بالاثواب، فيوجب في القلوب هيئة للقاتل اكثر من هيئة من هو على خشبة محراب (عازية من الريبة).

وكان القاص يقوم في البداية بما يشبه صلية الاندماج الممرحي، عن طريق الصمت الطويل، وتقمص حالة الحائض الزاهد العابد، وبقدر قباعة الجمهور بصديق اندماج القاص. بقدر نجاحه في الوصول إلى وجدانهم، ولم يكن الأمر يخلو بالطبع من المتكسعين، اللذين يصف ابن الجوزي أحدهم بأنه كان إذا صعد المنبر، عطى وجهه وارنجد إلى أن يفرغ القراء من قراءة القرآن الكريم، ويمل هذا دائما تصمعا.

وكان المجلس يبدأ بصعود القاص إلى المنبر أو الكرسي، فيبدأ مساعدوه من قراءة القرآن الكريم في تحصيل الجمهور، بقراءات يصفها ابن الجوزي بالأنحاش الخارجة عن الحد المألوف، وقد جعلوها كالعباء، الذي يوقع عليه وبه كأنه حذاء أو عباء، وقد أثير الفقهاء عليهم هذه الطريقة في القراءة لأنها تطري وتبيح الطباع" ورغم استنكار الفقهاء لهذه الطريقة في قراءة القرآن، إلا أن العامة كانوا يستجيبون لها، ويفتنون بها، وتستثير بهم عواطفهم الدينية. لقد كانت تلك الطريقة هي الشائعة والسائدة في مجالس القصص، ويشارك فيها عدد من القراء في صوت واحد، وكانهم "كورس" يسهو الجمهور لسماع ما سيقوله القاص.

إذا ما انتهى القراء من الترتيل الجماعي، بدأ القاص يظهر، لينطق مجلسه، ويحتليه صعودا ومرتو لا، موقعا بقدمه، فإذا ما بدأ بعد حمد الله والثناء للمؤمنين في سرد قصصه الذي بطريقة أدائية مؤثرة، يرفع صوته حياء، ويخفضه حياء، ويلوئ أدائه للكلمات حسب معانيها، ثم يندمج أكثر فتحمز عياده، ويشد هيجه، وكأنه سدر جيش يقول: "صبيحكم أو مساكم" مع ارتفاع

صوته واشتدك غصبه، يبدأ في البكاء كمظهر من مظاهر الرهد الذي يملأ قلوب المتعبين. وقد يستعين بما يضعى على وجه الأصغر، أو يستخدم بعض الحيل التي تساعد على البكاء. أو يستخدم سيفا أو عصا لتجسيد ما يقول وتعميق معاء عد المستمعين، وقد يتحرك بعض الحركات التي تناسب ما يليق من السجاع أو اشعار يهزج الجمهور أى طرب، ويعمد إلى انشاد اشعار الغزل مع تصفيق بيديه وإيقاع برجليه، حتى إذا أراد أن يصحك جمهوره اصحكهم، وإذا أراد أن ينكهم ابكاهم! وكان بعض البابطين من هؤلاء القصاص يتناولون بين المدن والأقاليم الإسلامية بعروض مواهبهم، كما يفعل الشعراء مقابل منح وهدايا عظيمة، تتراوح كما يقدرها ابن الجوزى بين ألف دينار وسبعة آلاف دينار.. وقد كثر هذا النوع من القصص فى القرن السادس الهجرى، وهو القرن الذى عاش فيه ابن الجوزى، الذى يقول انهم جعلوا القصص معاشا يستمعون به الأمراء والظلمة والأحد من اصحاب المكوس (الصرايب والجمارك) والنكسب فى البلدان.

لما قصاص العامة، فقد كانوا بالطبع يحصلون على رزقهم من جمهورهم، ويقتسم ما يجمعه من جمهوره الفقيه مع القراء الذين يساعدونه بتلاوتهم التي تمهد لقصصه.

لقد رافق فقهاء وعلماء القرن السادس، وما بعده من هذه الظاهرة الإنسانية المأساوية الجماعية، بحق، كما يصعبا الدكتور النجار، موقفا لم يتعد الظاهر والخارج، فلم يروا فيها الا بدعة تصبغت فى احتلاط النساء بالرجال، ولم ينفذوا إلى ما وراء

الظاهر الى الأسباب السياسية والاجتماعية والاقتصادية، التي جعلت "العامّة" من الرجال والنساء ينشدون السلوى في هذه المجالات، وجعلتهم يمزجون بين تقاليدهم الشعبية وبين القيم الدينية، وبين فنونهم المعتقدة والمتجاهلة، والتي ينظر اليها الخاصة من عل، وبين هذه المجالات القصصية الدينية التي تتيح لهم تنعسا أسبوعيا أو نصف أسبوعي عن توتراتهم وإحباطاتهم، ولا تزال تلك الظاهرة مستمرة في عصرنا، بصورة أو أخرى، في حلقات الذكر الصوفي، أو الزار، أو احتفالات الموالد وهو الأمر الذي لفت انظار بعض الباحثين في العلوم الإنسانية لدراسة هذه الظاهرة للوصول الى أسبابها العميقة، التي لا تجدى في منعها الأوامر العقابية، أو الإدارية وحدها!



القصص الدينية الإسلامي والسياسة

يقول بعض المؤرخين القدامى ان اول من وضع القصص في الإسلام هم "الحرورية" من الحوارج، بمعنى انهم اول من بدل القصص الديني، وراى فيه، لتلييد وجهة نظرهم الدينية والفكرية، وهو موقف مفهوم في ظل الصراع الفكري والديني المتساوى الذي اندلع بين انصار الامم على وانصار معاوية بن ابي سفيان، فيما عرف في التاريخ الإسلامي بـ "الفتنة الكبرى" والذي انتهى بسيطرة الامويين على الحكم، وهزيمة شعبة على، وخروج الحرورية الحوارج على الجميع.

وقد اراد الخليفة معاوية منكر السحر الإعلامي للقصص الديني، وقوة تأثيره في نفوس العامة فبحث في طلب القصص، وجمعهم اليه، وجرى عليهم امره ان اب من بيت المال، ثم اوعز اليه قصصه، وقد صيغوا بصغير في الدولة، في مصر والشم

بالدعاء له بعد صلاة الصبح والعشاء، فكان القصص يجلس بعد انتهاء الإمام من صلاة الصبح، فيذكر الله ويحمده، ويصلي على نبيه، ثم يدعو للخليفة ولأهله وجنوده بالنصر والتأييد، ويدعو على من يحربه وعلى الكفار عامة^١. وكان بعض القصص يستخدم يديه في تأكيد وشرح ما يقصده، ومن هؤلاء سليم بن عزة الذي عيّن كأول قاض بمصر عام ٣٨ هـ.

وبهذا انقسم القصص الديني الإسلامي إلى قصص يؤلفه للخاصة لاداء وظيفة سياسية وإعلامية لصالح الحكم القائم، وقصص يزويه قصص العامة للوعظ والتعليم حسبة لوجه الله واحسانها. أما قصص الخاصة فهي يحصل على رافقه الرسمي من بيت المال، ثم تظهر نوع ثالث من القصص، بعد القرن الهجري الأول. كالقصص البصري، وفي عهد الله الجوي، ومطرب بن عبد الله، وصالح المري. لقد اعاد هؤلاء القصص النور عن القصص الديني وظيفته التذكيرية والتحذيرية، بعد أن هالهم ما اتى إليه الصراع السياسي بين الفرق الإسلامية من مس وحروج عن الدين الصحيح، وأحد بهم الحوف من الذنوب الجمعبة إلى الزحف المميز للحال الإسلامي العام ويصف الملاحظ في كتابه "كتابي وللتبيين" بعض هؤلاء القصص كصالح المري بأنه لم يكن قصدا، بل كان سير قوم، كما يصف مجلده: بأنه كان إما أحد في القصص بدا، ولكنه رجل مدعور، يفرعك لمره من حربه وكثرة بكائه، كانه ذكلى!

وفي العصر العباسي، ومع ظهور الصراع العربي الفارسي، اصعد القصص القوم إلى القصص الديني الإسلامي، الكثير

من الأساطير والخرافات الفارسية والأحاديث الكاذبة، ويذكر الجاحظ براعتهم في القصص، وكيف كانوا يقصون بالعربية والفارسية معا في المجلس الواحد فيفهم عنهم العربي والفارسي، ومع ازدهار الحضارى وما صاحبه من ثرف مادي تمتع به الخلفاء والأمراء ومن عايش حولهم من العلماء والأدباء من فارس وعرب في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ومع الثروات الكبيرة التي تنفقت على تجار العاصمة بغداد والحواسر الأخرى، وازدياد شفاء غالبية المسلمين ومعاللتهم في حياتهم اليومية، وما صاحب هذه المعالاة ونجح عنها من هبات وثورات للامة والنفراء، انعكس كل ذلك على القصص النبلى في الطرقات والمساجد والأسواق، وظهر ما عرف بقصص الزهد واتساع الزهاد والمتسكين من المتصوفة والزهاد، وقد تبلور هذا التيار الزهدى في البصرة أكبر مباء تجارى في العالم آنذاك. وقاد هذا التيار للزهدى حجة الإسلام الغزالي، ومالك بن ديار الذي كان شعاره: كفى بالمرء خيانة أن يكون أمينا للحوبة^٦. وفي القرنين الرابع والخامس الهجريين فتح باب التأليف في القصص للنبي الإسلامى على مصراعيه لتدخل منه الإسرائيليات بدور حواجر يصاحبها أخبار وقصص منسوبة للجاهلية وللامم القديمة وأحاديث وخرافات الشعوب المجاورة، ليسمح من هذا كله جنة الخروية تقوم بدور التعويض للبائسين عن شطف حياتهم، وحرمانهم من ضرورات الحياة، حنة يصنعها حبال قصاص لاشباع حرمات جمهورهم الجسدى والمادى، لا علاقة لها بالجنة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم وهي

الأحاديث النبوية الصحيحة، ولكنها مستمدة بخيال مبالغ فيه إلى حد الهومر، مما يسمعه ويراه العامة من ثرف الأعياء السفهاء، ومنعهم الحسنة بالنساء والحمر والطعام، ومن حرمان العامة من كل هذه النعم الدنيوية.

وكان من الطبيعي أن يستجيب العامة لهذه القصص الخيالية وأن ينشغلوا بها ومقاتليها نشغالا عظيما، وهو الأمر الذي استغفر الفقهاء والمخلصين من علماء الدين، فشنوا على القصاص وجمهورهم حملات شعواء، وجعلوا الحلفاء يصدرون مرسوما متعده تنهى عن حضور القصاص، وتولى المحققون مزاجية القصاص في المسجد والأسواق والطرفات باعتبارهم من "أصحاب الصنائع الفسدة، الذين أقعدوا على الناس حياتهم" والعل هي تحول موقف الإمام أحمد بن حنبل من القصاص والقصاص ما يلقى الضوء على أثر القصاص الجماهيري في ذلك الوقت، فقد كان ابن حنبل في البداية يرى أن الناس هي أصل الحاجة إلى القصاص الصدوق، فأصبح يراهم من أكتب الناس، ولم غايتهم هي هيب أموال الناس بالباطل، ويصر ابن الجوزي موقف الفقهاء من القصاص ودمهم واستعداد الحكام عليهم، بأنهم يحارون لتذكر القصاص دون ذكر العلم المفقود، ثم أنهم يحطون فيما يأتون به من قصص وأحاديث، وأكثر ما يعتمدون عليه في قصصهم من المحال، ويصير الدكتور محمد رجب النجار مثلا على ما جاء به القصاص في ذلك العصر في موضوعين كانا اثريين عديمي، هما قصة الأسراء والمخراخ، والثاني هو مرويات الشيعة عن آل البيت رضوان الله عليهم. فقد وجد القصاص في

قصة الإمام والمعراج مجالا خصبا لخيالاتهم حتى قال الإمام
للذهبي فيه: "إنه أصبح أشبه بمحادث الفصل" وليس مجرد
معجزة نبوية محددة الملامح في القرآن والسنة. أما مرويات
الشيعة عن آل البيت، وخاصة فيما يتصل بمقتل الإمام الحسين
وصولان الله عليه، فقد لعب خيالهم المشوب بالماطفة المشيوبة
نورا هائلا في التأليف القصصي الخيالي على حساب الوقائع
التاريخية حتى "اختفى الأمل وأصوب إليه من مبالغات لعب
العب المعرط لأن البيت والخيال فيها نورا لا يمكن تصديقه".



القصص الديني بين العامة والخاصة

يصف ابن جبير في رحلته مجلسا من مجالس ابن الحوري القصصية الوعظية، بأنه كان أثناء هذه المجالس يشهد من شعير النسب، مبرحة التشويق، بدعة الترفيق، تشعل القلوب وجدا، ويعود موضوعها وهذا، وكان لحر ما شده من ذلك وقد احدث المجلس ماخذه من الاخترام، وأصاب المقاتل سهام ذلك الكلام! ليس هؤلاء اذنه البسوح وابن قلبي، فما صبحي بعد؟ يا سعد زمني جوي بذكرهم بالله قل لي، هربت يا سعد! ولم يزل يرددنا والانفعال قد اثر فيه والمدام تكاد تسمع خروج الكلام من فيه، الى ان خاف الانحدام، فابتكر القيام، ويزل عن التعبير دعث عجلا، وقد اطار القلوب عجلا، وترك الناس على لحر من الجمر، يشعونه بالمدام الحمر، من مغلر بالانتخاب، ومن منحرف بالتراب. ويطلق السكتور النجار على

وصف ابن جبير بقوله: "فما بالنا بقصاص العامة الذين تجاهلهم التاريخ، وكانوا أقرب إلى العامة، لغة ومرايا وفكرا وسلوكا وإبداعا؟ فقد كان قصص العامة تقيصا لتقصص الخاصة، فقد كانت قصص الخاصة يؤنبها قصاص رسميون هم جزء من الجهار الإعلامي والعكزى للحكم، وكان جمهورهم هم الفقهاء وزجال الدولة، وكانت قصصهم بالتاكيد لدعم مواقف الحكام وتبرير سياستهم، فقد كان الفن القصصى فيها يحتل مكانة هامشية، لأن الهدف ليس الامتاع الفنى ولكن التفسير والتبرير الوعطى لسياسة الحكم، أما قصص العامة فقد اعتبرها الفقهاء من البدع المكروهة لمن يقولها ومن يستمع إليها، وقصاص العامة كان يمارس وطيفته نور ابن من الأمير، فلا هو أمير ولا يقص بأمر من الأمير، ولكنه يحتال بالتقصص من أجل العيش، فهو إلى الممكنين "المسولين" أقرب منه إلى القصاص والوعاظ الرسميين، أما جمهوره فهو من عامة الناس دائما.

ولكن قصص العامة هذه، كما تقول الدكتور دبيعة طه النجم هي في الحق أقرب الصنفين إلى القصص الفنى الذى يحى دراسته من الناحية الأدبية، لأنها قد تميزت بأعاجيبها وأخيلتها التى ترعى مستوى الخيال الطليق الذى يتمتع به العامة، والذى لا تحده غاية معينة، ولا منطق عقلى فى كثير من الأحيان.. وقد لا نفوت الصواب إذا قلنا إن هذا القصص قصص العامة هو الذى مهد السبيل إلى استغلال القصة شيئا فشيئا عن المجال النثى أو العلمى، فجعلها تقوم بنفسها، وتثقل (شعاعها) ثم تكون على ايدى مؤلفين قاموا بتدوينها (كتابة) كالذين سجلوا لنا ألف

ثيلة وثيلة، أو السير والملاحم الشجيرة، التي تمتاز بالحياة
الخصب الذي لا يرتبط إلا قليلا، بالواقع، كما ان قصص العامة
الديني هو الذي مهد لظهور فن فريد في الأدب العربي هو فن
المقامة.

والقصصون الذين اهتموا بالوعظ الديني في بداية الأمر، ما
لبثوا ان صاروا ينقلون الى مجالسهم، للقصص الشعبي، فكان
بعضهم يؤثر عواطف الناس بسرد قصص البطولة أو قصص
الحب الشائعة على السمة الرواة، ويلبسها بالعمى الوعظية أحيانا،
وقد نهى ابن الجوزي القصص عن ذكر قصص الحب والعشق
للديوي، وقصص سبدي وليس في العشق الصوفي، وقصة
موسى والحب، وقصة يوسف وزليخا، على سبيل المثال، كما
نهى عن قيام القصص بالتحريض والغذاء أو تلحين القرائن، أو
إيراد النواير الفكاهية، وغيره مما كان يلجأ اليه القصص من
هون السرد التي يزهون بها عن العامة في مجالسهم القصصية.
لكن هذه النواهي والأوامر ذهبت ادراج الزياح، فقد كانت
مكانة القصص، وخاصة للموهوبين منهم، عند جمهورهم أقوى
واشد تأثيرا من نواهي الوعاظ والفقهاء الرسميين، ومن مراسيم
الحكام، ورقابة المحتسبين، لقد اضلّط في مجالس الوعاظ
والمذكرين الشعبيين الذين باتت، لتصبح بعض هذه المجالس
أقرب الى بعض أنواع العروض المسرحية، في زمانه وخاصة
بعد انصراف الخاصة عن هذه المجالس وتركها لجهال
القصص، على حد تعبير ابن الجوزي، فلم يعد يحصرها إلا
"العوام والنساء" أي أنها قد خرجت من رقابة أهل الحكم والفقهاء

والرسميين، ولم تلقزم بتعليماتهم التي تطلب أن يضرب بين الرجال والنساء الذين يحضرون مجالس الوعظ القصصى حاجبا، وأن يحمل لهم الواعظ من وعظه نصيبا فيعطون ويحرفون من تصحيح حق الروح ومن التفريط في الصلاة، وينهاين عن التبرج والخروج، ويذكر لهم ما ورد في ذلك من الحديث.. كما حذر الفقهاء ليص من أن يوصى للقصص أكثر مجلسه في ذكر العشق والمحبة وانشاد اشعار العزل التي يحتوى على وصف المعشوق وجماله، وشكوى ألم الفراق، مما يعنى ان هذا كان يحدث ولذلك نهى الفقهاء عنه، كما يعنى ان هذه المجالس القصصية الشعبية قد اصبحت لها تفاليدھا الدينية والعسبة الخاصة، التي املتھا الاحتياجات النفسية والفكرية لعامة الناس، الذين لم يعالوا بتعالى الواعظ الرسميين عليهم، ومصوا الى ما يريدون ويريدون من الوعظ والقص الدينى، كما يفهمونه، ويمر لن الجورى عن نظرنه الخاصة من العلماء والواعظ الرسميين الى هذه المجالس الوعظية الشعبية، بقوله: "ومعلوم ان عامة المحصرين اجلاف، بواطنهم مشوه بالهوى مبتلئ به حب الصور، ولا يحلو المجالس من النساء المستحسنت، ومثل هذا يحرك ما فى النفوس، من كل القصى نهاب مستحسنا قليل الذين وقع الحديث معه".

لم يشغل الفقهاء الا بمرح حضور النساء مع الرجال، ولم يصوا الى ما يعنيه هذا الانفعال الهسيوى على مجالس الوعظ الشعبية، من تنقيب وتعبير عن الاحباط الاقتصادى والسياسى والاجتماعى. لقد كانت تلك المجالس تتحول الى ما نسمه حلقات

النزولويش المتصوفة، أو حفلات الزار في بعض شبلاد العربية،
ومن يقرأ وصف ابن الجوزي لهذه المجالس، لا يدرك أن متوالفه
هذه الظاهرة التي تحتاج تحليلًا اجتماعيًا ونفسيا. فقد كانت
بعض النساء من الحاصرات تصيح كصياح الحامل عند الولادة
وربما رمت أزواجه وقامت وقد ابتلتها الوجد مع استعانة الرجال
ممن يصل إلى حالة الوجد، وعندئذ يحدث الهرج والمرج في
المجلس، كلما زادهم الواعظ من جرعة التخريف وتصوير
الحجاب، مما يوجب التلب في قلوب الجمهور .



(٥)

الرؤية الشعبية للمسيرة النبوية

لم تحفظ لنا كتب السيرة الكثير من التفاصيل عن حياة النبي عليه الصلاة والسلام قبل نزول الوحي، وإن كان القرآن الكريم قد رسم الخطوط العامة لشخصيته النبوية كرسول لله وحاتم للبين، بعث بين العرب بلسانهم، لينذرهم وينكرهم، ولتخرج رسالته من المحيط العرسي إلى للعالم كافة. يحاطب الله بنيه بقوله: ألم يجدك يتيما فإوى ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عدلاً فأعشى وسيف كتاب السيرة والمؤرخون والحيال الشعبي الكثير من الملامح والتفاصيل الحية، التي تجد تلك العلاقة المقننة والخاصة بين المسلمين وبينهم العظيم، وستقتنى بعض هذه الإصدارات إلى عالم التاريخ وحفاته ووقته، وسيقتنى بعضها الآخر إلى عالم الأند والموروث الإنساني الشعبي، وسيختلف الباحثون حول هذه الإضافات القصصية، يحاكمها البعض بمقاييس مناهج المؤرخين الحديثة، وطرق أصحاب لغة والحديث، التي وإن كانت صالحة لتنظيم حياة المسلمين في دنياهم ودينهم، إلا أنها غير قادرة على استيعاب أشواق المسلمين، على اختلاف أجيالهم وأزمانهم، ورؤاهم الثقافية، لشخصية النبي العظيم.

لقد حرر كثير من القصص، والمتصوفة، والشعراء والعلماء الشعبيون، حيالهم الحبيب من لوائح وبواهي الفقهاء

والمؤرخين، الملتزمين بالحقائق الجافة، والتفسيرات الملتصقة بالظواهر والمعتقدات على الحيال الإنساني، وصورته للحياة الروحية والقصبة للمسلمين، ورايهم المشرقة في التوحد مع شخصية نبهم من خلال موروثهم الشعبي، وحيالهم القوي، كرمز للخير الأسنى والمثل الأعلى.

ونعكس الصياغة الشعبية للسيرة النبوية الكثير من هذه الرؤى والاشواق الروحية والعبية، وقد اكتملت هذه السير النبوية للشعبية في زمن متأخر ولكنها أصبحت وسد تلك الوقت، جزءا من الموروث الديني الشعبي للمسلمين، رغم ان بعض الباحثين وعلماء الدين رأوا انها قد حشيت بعصر صليبة السد، لا تصور المعروف من مولد الرسول وحياته في صورته الصحيحة، كما يقول الدكتور ركي مزارك في كتابه عن "المدافع النبوية" وقد حدث ان دعا وزير الاوقاف المصري محمد مجيب عمر دلي "اهل العلم" الى وضع صيغة جديدة للمولد، يراعى فيها تحري الاخبار الصحيحة وقد قولك دعوة وزير الاوقاف هذه، بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية الرسمية، ولكن الدكتور طه حسين تصدى لهذه الآراء، رغم ما في هذا الموقف من حماسة، فشر مقالاً في جريدة "الواقي" ١٩٣٤/٨/١ كتب فيه ضمن ما كتبه: "وأي دس على المسلمين في ان يتحدث اليهم قصص كهذه الإختصات الخلوه العذاب، ستمهم من اسم النبي والوحش كانت نصصم بعد مولد النبي كله يرب ان يكتله، ولكنه ريت من هذا، لان القصاص سبق من رصاص النبي سيكون الى خليفة السعيدة؟" وأي دس على المسلمين في اي يسعدوا من

الإنس والجن والحيوان والنجوم تباشرت بمولد النبي، وأن
الشجر أورق لمولده، وأن الفروع أزدهى لمقدمه، وأن السماء
دنت من الأرض حين من الأرض جسمه الكريم؟ لم تصح
الاحاديث بشيء من هذا، ولكن الناس يحبون أن يسمعوا هذا،
ويروون في التحدث به والاستماع إليه تمجيذا للنبي الكريم، لا
بأنه به ولا جناح فيه. إن من فاحش الخطأ أن يصيق على
الجماهير حتى في القصص البريء، أن من ضاد الذوق ألا يباح
للجماعات إلا الحق الذي لا حيل لتخييل فيه، أن من سوء العاية
بالدين أن يكف الخيال عن تأييد الدين".

ونعلق المذكورة نبذة إبراهيم في دراستها عن "السيرة النبوية
بين التاريخ والتراث الشعبي" على رأي عميد الأدب العربي
حول علاقة الخيال الشعبي بالدين والتاريخ، بأنه لو كانت
الهيئات الأدبية والأدبية الرسمية قد استجابت لدعوة وزير
الأوقاف وألغت نص السيرة ملتزم بالتاريخ والواقع ما التزم به
الشعب، فالخيال بالنسبة للحياة الشعبية هو جوهر إبداعها الفني،
وهو يوظف على نحو رائع للتعبير عن متاعها النفسية
وظموحاتها الاجتماعية وانبهازاتها الدينية.

إن تلك الأقاصيص التي ترد في الروايات الشعبية للسيرة
النبوية، والتي مجسد رد فعل الخيالي للجماعة الشعبية لطبيعة
شخص محمد عليه الصلاة والسلام، هي من وجهة امر، تأكيد ليقين
بأن الجماعة الشعبية المسلمة به هو من نبت فيه الأمم، وذهب
الدين من امر الخلق بعباده صيلا، لم تعيدت الروايات التي
تدور اليه وذهب استمر في التدوير بقرب بقعة النبي

إلى قومه. ومنها تلك الرواية التي نقلها ابن هشام في السيرة عن
ابن اسحق، والتي تقص قصة تلك الحبر اليهودي الورع الذي
ترك سوريا نازحاً إلى بثرث المدينة، وعندما سئل عن سبب
تركه لأرض الحصب والعى إلى أرض الصعاب والجوع؟
أجابهم بأنه يريد أن يكون في بثرث عندما يصل إليها محمد
مهاجراً برسالته!



السيرة النبوية والسيرة الشعبية

للتراث الشعبي فوائده الإبداعية المضاربة في جذور التاريخ الإنساني، حيث بدايات الإبداع الجمعي، عندما كانت النفس والإيقاع والكلمة لها واحدا يعكس تصورات الجماعة الشعبية عن الكون والحياة والتاريخ، عبر أشكال هنية تنوعت وتطورت من ذلك الأصل القديم، فأصبحت: أسطورة أمثلة حكاية سيرة ملحمة أو أغنية تحمل أصداء من هذا كله على المستويين الفكري والموسيقى.. وهو ما يشير إليه الدكتور عبد الحميد يونس في مقدمة كتابه "الهلاكية في التاريخ والأدب الشعبي" بقوله: "ولعل من المفيد ونحن نتحدث عن الأدب الشعبي ودلائله على بنية الجماعة، أن نستعيد نظرية الاسترجاع التي يقول بها علماء الحياة فالإنسان وهو ناج الحقيقة، يحكى في بشاته ونموه وتدرج حياته، بشاة الحياة كلها على اختلاف صورها

وسموها وتكرجها، والشعب الحي أو الجماعة الحية تحترق جميع
الأنوار التي مرت بها خلال العصور والأحقاب، وما من أثر
من آثار التراث الشعبي إلا وجدنا فيه رواسب نصية وأغلة في
القيم، تعود إلى عهد العتاتر البدائية في العصر الحجري وما
قبله، وهو إلى جانب الروايات الصلوية في الأثار والنقوش،
اصدق في دلالة على نصية الشعب من الوثائق والأصاوير
وروايات الاخباريين وأصحاب الحوليات والتواريخ".
وشخصية النبي محمد عليه الصلاة والسلام أبرز شخصية
أساسية في الأدب الشعبي العربي، فهي البذرة السورانية
المباركة التي يلتقي عندها العديد من هوى الأدب الشعبي، من
سيرة، ومذاهب، وأشادات دينية، إلى أغاني الحجيج والعمل
والعزل، إلى الحكايات والتقصص. وإذا كان هناك شبه إجماع
الآن بين علماء التراث الشعبي العربي، على أن السير الشعبية
العربية تكاملت وتم تدوينها في مصر، بعد تعريب مصر
وتعصير عربها، في القرنين الخامس والسادس الهجريين،
الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين.. فإن هذه السيرة الشعبية
هي في جوهرها تسجيل لصورة بطل يجسد المثل الأعلى
العربي، حيث يمتزج فيه الماثور للتاريخي بالماثور الشعبي، كما
يمتزج فيه الواقع بالحلم والأبطورة، حتى قيل: "إن السيرة
الشعبية هي التاريخ يشد على أبواب الأسطورة". وتستمد
السيرة الشعبية تقاليدها الأولى من "المعاري" وهي الحروب التي
حاصها للرسول وأصحابه، والتي شكلت روايتها وتدوينها السير
الأولى، بعد أن عرفت الثقافة العربية الإسلامية تدوين مختلف

مجالات المعرفة في نهاية القرن الثاني الهجري ثامن
الميلادي.

السيرة ابن في تراثنا الرسمي ترتبط بالترجمة المأثورة
للنبي (سيرة ابن اسحق التي نوبها ابن هشام) باعتباره البطل
العربي الأعلى، دوليا وقوميا وعسكريا، والذي تمتد سيرته من
حيث المساحة الزمنية إلى ما قبل النبوة، ثم للبعثة، ثم الدعوة
والغزوات والحروب، ثم النصر، إلى نبوة الوفاة، والوفاة ذاتها،
ثم الاستناد إلى ما بعد الوفاة واستقرار الدعوة الإسلامية^{١٠}
والسيرة بهذا المعنى باعتباره لول سيرة هي التراث العربي
تستهدف رسم المثال والسودح القومى (الرسول الأعظم) دينيا
وعربيا وعسكريا وأخلاقيا.

لقد استعار الإبداع الشعبي مصطلح "السيرة" بكل دلالاته من
السيرة النبوية، باعتباره وعاء لتسجيل نموذج تربي بطلاني
يتمتع بسيرة النبي عليه السلام، باعتباره نبي الأنبياء، وبطل
الأبطال "وقى هذا الإطار تفهم حرص مؤدى السيرة الشعبية في
بدايات اشتداهم الشعري، على مدح النبي عليه الصلاة والسلام،
والإنشادة بصفاته العظيمة وباهل بيته، ومعجزاته وبطولاته،
كمثال بطولي أعلى، ومؤدى السيرة الشعبية يسوق هذا المديح في
مفتتح اشتداه، لا بطريقة روتينية يكرر فيها الكلمات والعبارات،
ولكن بطريقة مبتكرة ومتجددة كل مرة، وهذه البدايات هي جزء
من السرد الشعري والنثري في السيرة، فهو يقيس الأحداث
والوقائع والبطولات والمعارك والمواقف الأخلاقية، على
مراجعياتها الأساسية، التي يؤمن بها الشاعر المشد والجمهور

المعقلى معا، وهى السيرة النبوية.. ولتأكيد هذه المرجحية توجد السيرة الشعبية صلات بين أبطالها وبين النبي عليه الصلاة والسلام، متجاهلة الحقائق التاريخية، والتاريخ فى الوعي الشعبى الجماعى ليس وقائع صماء منفصلة، لكنه مسيرة متصلة، لا يحكمها التسلسل والتتابع فى الزمان والمكان، ولكن يحكمها اتصال المعانى والدلالات والرسائل التى يريد المبدع الشعبى توصيلها لجمهوره، الذى شاركه عبر احقاب طويلة فى صياغة هذه السير الشعبية. ففى "سيرة عنترة" وهى أقدم السير الشعبية التى وصلتنا، يصور المؤلف المجهول واقعة تطبيق "مطقة عنترة" داخل الكعبة تفسيرا مختلفا عن تفسيرات كتب التاريخ والأدب، ويخبرنا راوى السيرة أنه بعد أن انتزع عنترة الاعتراف ببطولته الجعدية وفروسيته، شارك فى مباراة شعرية لانتزاع الاعتراف به كشاعر، لتكتمل صورته كفارس وشاعر، وهما وجهها البطولة، كما كان العرب يهتمونها.. وتجعله السيرة يتحدث إلى الشاعر الجاهلى عروة بن الورد الصعلوك الشهير، بقول عنترة عن نفسه: "من يكون هذا المقال مقال، وهذا القتال قتال، ما يصح إلا أن يطلق له قصيدة على جدران البيت الحرام، ويفخر بها الحاضن والحام".

ويكون تطبيق قصيدة عنترة على جدران الكعبة أحد علامات ظهور النبي محمد عليه الصلاة والسلام.. وتحكى السيرة أن عنترة وهو فى مجلس بين الشعراء والفارس، رأى رجلا يجرى قائما نحوهم، وأخبرهم للرجل أنه قادم من البيت الحرام، وأنه سمع عبد المطلب جد النبي يعظ أهل مكة ويخبرهم أن زمان

النبي قد أهل لأنه عبد المطلب قد رأى مناما، كأنه واقف
قدام "هبل" أشهر اصنام الجاهلية وهو الصم الأكبر الذي على
الركن اليماني، وكأنه سأل عن الرجل الروحاني (النبي) متى
يكون ظهوره؟

فقال هبل: إذا أبعت نخلة يثرب، ووقع الجوع والغلاء في بلاد
المغرب، واشتق أبوان كسرى وحرب، وعلق قصيدته فارس بن
عبس الأدهم، ولجل سفك الدماء في الحرم، وحولت له رقاب
الفرسان من العرب والمجم.. وفي "سيرة سيف بن ذي يزن"
وهو شخصية تاريخية عاشت قبل الإسلام، يصل مؤلفو السيرة
الصلة بينه وبين النبي محمد، عن طريق وزيره "يثرب" ولا
يخفي ما في اختيار اسم الوزير من دلالة، فيثرب هي المدينة
التي هاجر إليها النبي وأصحابه.. وفي السيرة الهلالية يتصل
نسب بطلها الإمامي أبي زيد الهلالي بالنبي عليه الصلاة
والسلام، من خلال أم أبي زيد "خصرة القريفة" وفي "سيرة ذات
الهمة" نجد أن أبرز صفات لحد أبطالها الأمير الصحصاح أنه
"رقت لغير النبي وبن الملاح، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
ما أعظم النجى وأنار الصباح".



القصاص الشعبي والمعجزات النبوية

تعكس قصص المعجزات النبوية التي صاغها الخيال الشعبي مدى تعلق الوجدان الجمعي بالخوارق والمعجزات ومحاولة تفسيرها وتعليلها بما يتكامل مع ما يحمله هذا الوجدان من موروثة قديمة، ويستهدف هذا الوجدان من رواية قصص المعجزات وتنويعها والاستمتاع بسماعها أو قراءتها، تأكيد المعجزات النبوية، والاستجابة لدوافع أخلاقية واجتماعية من ناحية، والترويج لبعض الفرق الإسلامية سياسيا من ناحية أخرى.

وتسوق الدكتورة نبيلة إبراهيم في دراستها المهمة عن "السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي" التي اشترى إليها، بعض القصص الشعبي الذي يروي لتأكيد هذه الأهداف الوجدانية والأخلاقية، والتي مارلت تروج بين العامة حتى الآن مثل:

قصة عامر اليهودى عابد الأصنام' وقصة اليتيم المظلوم'
 وقصة الغزاة والجميل' وكل هذه القصص تباح فى طبعات
 شعبية فى الاحتفالات الدينية والأسواق الشعبية.
 وتحكى قصة عامر اليهودى عابد الأصنام، عن هذا الرجل
 الذى كان له ابنة أصيبت بالشلل والجذام، وكان يتوسل للأصنام
 أن تشفيها، وبينما هو حاكف على عبادة صنمه ذات يوم، شاهد
 بورا ملا الأفلق، ثم كشف الله عن بصيرته فرأى الملائكة عند
 الكعبة. وقد اصطفت وراء الجبال المساجدة والأرض الهامدة،
 وسمع منانها ينادى: قد ولد للنبي الهادى، فصل عن اسمه فأجابه
 حجر بن اسمه محمد المصطفى، فخرج هو زوجته ليندبا إليه،
 فرأى ابنته تغيب سليمة معافاة، فسألها أبوها وهو فى دخول تام
 عن شعائها فقالت له: انها رأت بورا ملا ما بين السماء
 والأرض، وعم الوجود، فلما رأت شخصا أمامها يسطح القور
 من وجهه، سألت من هو؟ فقول لها: انه سيد ولد عدى. وسألت
 عن اسمه، فقيل لها: محمد واحمد، فسألت عن دينه، فقيل لها،
 دينه هو الإسلام، وهو قرشى يعبد الواحد القهار، فلما شكت
 لصاحب الصوت من داتها، قال لها: توسلى لله بجاهه فقد قال
 الرب القريب الداسى، لى قد أودعت الإسلام سرى ويرهاى، فلا
 أحيب من دهلى" فبسطت يدها ودعت الله، ثم مسح بيدها على
 وجهها وجسدها، فاستيقظت من نومها صحيحة البدن.. ورجل
 الأب والأم والأبنة إلى مكة، وطرقوا بيت امعة بنت وهب لم
 النبى، وسألوها عن المولود الذى نور الله به الوجود، فقالت لهم.
 لى أحاب عليه من اليهود، ولكن الرجل احبرها انه هو وعائلته

فأقروا وطنهم محبة فيه، فسمحت لهم برؤيته، وقبلوا قديمه،
وسلموا العهد والأمانة، وبعد أن خرجوا عاد عامر ثانية ليري
الرسول، وقبل قديمه ثانية، ثم شقيق شهقة وعجل الله بوجهه إلى
الجنة.

وتعلق الدكتور نبيلة إبراهيم على هذه القصة للشجيرة بقولها:

"فهذه القصة مع بساطتها استطلت عناصر كثيرة من السيرة
النبية، وهي تلك العناصر التي تحكى عن معجزات الرسول
عليه السلام، فقد استطلت ما روى في السيرة من إيمان بعض
المكافرين والمعادين المعانين بالدعوة، سواء كانوا من العرب أو
اليهود، كما استطلت قصة النبوة التي رآها كسرى وغيره، ثم
ذلك الحبر الذي يحكى كيف أن الأحجار كانت تحيى للنبي عليه
السلام قبل أن يهبط عليه الوحي، وتقول له: "السلام عليك يا
رسول الله".

أما قصة اليتيم المظلوم، فقد ألقت استلهاها للآية القرآنية "أما
اليتيم فلا تقهر" فهي تحكى أن النبي رأى وهو عائد من إحدى
غزواته طفلاً صغيراً مسكيناً باتماً على الأرض وحوله أطفال
يلعبون، فابقطه النبي وسأله عن عدم مشاركته الأطفال في لعبهم
ولم يكن الطفل يعرف النبي، ولكنه أجابه بمصاحبة شعيرة
أعجبت النبي فاستراذه معها، ثم عرف بنفسه، وعرض عليه أن
يكون جده، ويكون الإمام على أباء، والسيدة فاطمة أمه، والحسن
والحسين أخويه هرح الصبي، وقدمه النبي إلى بيته، فعاتش في
بيته، وعندما خرج النبي في إحدى غزواته طلب أن يضم إليه
محارباً، فأخذ معه، وأصيب الصبي في تلك الغزوة بصربة قاتلة

فصله الرسول عليه الصلاة والسلام وصلى عليه، ووراءه
سبعون ألفاً من الملائكة.

وأما قصة الجمل والعزلة فهي من أكثر هذه القصص تردداً
على لسان المنشدين للشعبين، فهي مصاغة شعراً، وتحكى عبر
بناتها قصة جمل وعزلة ذهبا للنبي عليه الصلاة والسلام لكن
يشكيا له من ظلم الإنسان، ويطلبنا منه الانتصار لهما "وإذا كانت
هذه القصة في صومها تصوير الطبايع الإنسان وغيباته وقلة
حيثه في بعض الأحيان، فإنها هنا لا تؤدي هذا الغرض وحده،
بل تؤدي غرضا آخر أهم وهو إثبات معجزة الرسول عليه
الصلاة والسلام، فصلا عن الإشادة بأخلاقه السامية التي حرص
على نشرها بين المسلمين وتبدأ القصة بمدح الرسول عليه
الصلاة والسلام، فيقول رجلاً:

في أول القول مدحك يا نبي استغناح
يا من سلم عليك الشمس كل صباح
ما أحلى مدحك وما أخفه على العداح
والأنا إن مدحت النسي لم على جاح
وثباتي القول مدحك يا نبي مطلوب
وكم من صيفة وتفرجها على المكروب
جت الفرلة ولبنها على الثرى منكوب
ضممتها يا حبيبي لما أوفت المكسوب
وتحكي القصة للشعبية قصة عزلة أرائت أن ترضع أطفالها،
فطلبت من صيادها أن يترك أسرها لتقوم بالمهمة وتعود إليه
فرخص، فصنعها للنبي وأوفت بعهدا ثم ينتقل القاص الشعبي

الى قصة الجمل فيسرد لها ليعود الى ربطها مع قصة الغزالة في
سبوع واحد.

ثم يستمر الشاعر الشعبي فيسرد على لسان الجمل القصة،
وكيف كان جملاً قويا، ثم اصابه المرض، فاعتنى به صاحبه
قليلاً، ثم لما تأكد من شدة مرضه أهمله، وقطع عنه زاده، وحاف
الجمل ان يذبح فذهب للنبي يستغيث به، ويذهب النبي والصحابه
مع الجمل الى صاحبه، الذي يعرف انه كاسى القلب فقد اعتدى
على جاريته فعفا عنها ولكن عينها تشفى بعد رؤيتها للنبي.
ويرفض صاحب الجمل تصديق قصة بطق الجمل بالشكوى
للنبي، ويطلب النبي من الجمل اعاده شكواه، فيقبل ويسلم
اليهودى صاحب الجمل، ويحرر الجمل من الذبح، وبذلك يؤكد
القاهر الشعبي بث القيم الاخلاقية من خلال المعجزات النبوية،
وكما تقول الدكتورة نبيلة ابراهيم في تعليقها على القصة "واذا
كانت مهمة الدعوة المحمدية هي اعادة النظم الى الحياة والعاء
لوهوبيتها من خلال تطبيق اسس الاسلام العادلة، فقد انتهت
القصة، بتحرير المظلوم، وفك قيد الأسير، وخصوع الظالم
لنظام النبي العادل".



(٦)

سيرة النبي.. رؤية غربية

كارين أرمسترونج كاتبة بريطانية وباحثة في تاريخ الأدب، عاشت فترة من حياتها كراهية، ولكن الحياة في النير كانت ضيق من أن تنسج لرؤيتها الخاصة للأدب، فهي بحكم دراستها المتعمقة في تاريخ الأدب، وخاصة الأدب التوحيدية الثلاث، اليهودية والمسيحية والإسلام، تؤمن بأنها جميعا تسعى للحب، والعدالة والسعادة للإنسانية، ولكنها على العكس من هذه الرسالة السامية اتخذت منعطفا للكثير من العداوات والصراعات والحروب الدعوية.

وكتابتها: "محمد، سيرة حياة النبي" الذي صدر بالإنجليزية عام ١٩٩٢، وبالعربية عام ١٩٩٨ يترجمة الدكتورة فاطمة نصر، والدكتور محمد عتاني مشورات "سطور"، يقدم رؤيتها للإسلام ولنبيه عليه الصلاة والسلام، متوجهة بحطابها للقارئ الغربي. ولقد صدر كتابها ليواجه الصفحة العربية للشراسة التي انفجرت بعد نشر الكتاب المسمى "آيات شيطانية" للكاتب البريطاني الهندي سلمان رشدي الذي أوقف الموروث الغربي التكريه للعداء للإسلام، بما يجعله هذا العداء من عصرية تضرب بجذورها في تاريخ قديم، لم يستطع الكثير من المثقفين الغربيين، رغم دعواتهم عن العلمية والموضوعية، أن يتخلصوا من تأثيراته اللواعية واللاواعية. وقد جاء كتاب الكاتبة البريطانية

كارين أرمسترونج في توقيته المناسب، فهي تعرض الحياة بلى الإسلام محمد الذي حرف للكتاب العربى اسمه، وانفروا على حياته وعلى تعاليم الدين الذى أرسل به لقرون طويلة، لا تريد أن تنتهى. وهى، الكاتبة، تعرضها الموضوعى لحياة محمد، والذي يأخذ الإطار الثقافى للقارئ الغربى فى الاعتبار، تبين لهذا القارئ أن كراهية العربيين وحقاءهم لىبى الإسلام وللمسلمين، والربط بينهم وبين العنف والهيجية والشهوانية والتخلف "نفاقص" ما يذمعه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكرى وعقلانى، وهى يوصفها بأنها على هذا النفاقص تهتم دفاعات القارئ الغربى، وتصيب زهوء بهويته العقلانية فى مقتل

وليس فيما تسرده الكاتبة البريطانية عن حياة النبى جديد، بالنسبة للقارئ العربى أو المسلم، فالمصادر الأساسية التى اعتمدت عليها الباحثة هى المصادر التقليدية للتسيرة النبوية، كسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، ومغازى الواقفى، وتاريخ الطبرى. ولكن الجديد فى كتاب الباحثة البريطانية هو قدرتها على استنطاق هذه الأحداث والوقائع القديمة بمعانيها الإنسانية العميقة، وقدرتها - رغم الحرص على الحيادية - على اللجوء إلى جوهر دعوة نبوية غريبة عنها وعن موروثها الثقافى والعقيدى، لكن انراكها لهذه الصعوبات منذ البداية، ساعدها على احتراق الحواجز والعقبات التى تحجب حقيقة الإسلام السامية، وروعة كتابه المقدس، كما ساعدها على قراءة كتب المؤرخين المسلمين القدامى، قراءة واعية ومصنعة فى الوقت ذاته، من خلال وضع هذه المصادر التاريخية الغنية والداهنة بالحيوية،

في سياقها الصحيح زمانا ومكانا.

فكتاب السيرة المسلمون، لم يكتبوا سيرة نبهم، كما كتب الكتاب المسيحيون سير قديسهم بطريقة غير نقدية. اما كتاب السيرة المسلمين فقد تميزوا بنقتهم التي لا حد لها في الشخصية التي يورخون لها، ليخرج القارئ بصورة واقعية مقنعة بالحياة عن ذلك الإنسان غير العادي، ومن الطبيعي القول بان هؤلاء المؤرخين لم يكتبوا بنص الأسلوب الذي يتبعه المؤرخون الغربيون المحدثون. فقد كانوا رجال عصرهم، وهكذا نراهم كثيرا ما يوردون القصصيات بصور عليها طابع الإعجاز التي يمكن لنا اليوم تفسيرها تفسيراً مختلفاً، لكن هؤلاء المؤرخين مجدهم يعون طبيعة مادتهم المعقدة، وايضا، يعون الطبيعة المزاوجة للحقيقة. لكن المساواة بين البشر وكما سدرى - سمة ذات جذور عميقة في الإسلام، وحتى إذا ما قيل أن سلسلة المصادر لا تتفق مع المتطلبات الحديثة للتاريخ، فالمؤرخون في حالتنا هذه يبذلون جهدهم كي تتساوى أهمية كل رواية للأحداث، وهم إذ يوردون كل الروايات لا يوافقون عليها جميعا، وهذا في حد ذاته، برهان على أن هؤلاء المؤرخين القدماء، ورغم تبجيلهم الواضح للرسول، كانوا يصممون سيرهم كل الروايات بكل ما يملكون من أمانة وصديق.

ونقدم اللاحقة من خلال سردها لوقائع حياة النبي في المدينة محاولته إقامة مجتمع عدل وكفاية هو في جوهره تحقيق للمدينة الإلهية. ومن خلال سردها لغرواته ومعركه الحربية، تقدم اللاحقة معبوما جديدا للجهاد، يختلف جذريا عن ذلك المفهوم

المدني والمحموم الذي يقدمه الإعلام الغربي، عن جهل وسوء
 قصد.. فخطا للمسيح الذي اتسمت دعوته بالمسالمة، خاضع ليس
 الإسلام معارك إيجابية وصراعات هي الواقع لردع الظلم ورد
 العدوان "أي أنه وبلغة اليوم، قدم المثال على الفعل الإيجابي،
 فعروب الإسلام كانت دفاعية، وردا للعدوان، بالإضافة إلى أنها
 كانت وسيلة لفرص "السلام الإسلامي" الذي يمكن في طله وقف
 حمامات الدم، والقلة مجتمع عادل أساسه القيم الرفيعة، إذا
 فالجهاد هو المضل المستمر ضد الذات، وصعد الآخر من أجل
 تحقيق الإرادة الإلهية والعمل على إبعاد البشرية، كما أنه لم
 يقتصر على كونه وسيلة أو هدفا له كط، وعلى عكس ذلك، فهو
 دين الاستمرارية مع الماضي، وعقيدة سلم وتصالح
 وتقرر الباحثة للقرئ الغربي من غضب وثورة المسلمين على
 كتاب "نات شيطانية" وكتابه، وتأييد العرب وتبنيه للكاتب
 والكتاب، شخصية محمد تجاوزت المسلمين كشخصية تاريخية،
 لتصبح رمزا لكل ما هو مقدس وغال وعزيز عليهم، وأي
 امتحان لشخصية النبي، هو امتحان لعقيدة المسلمين وتاريخهم
 وثقافتهم ووجودهم.. فالنبي محمد يعيش في وجدان المسلمين،
 وفي أسلوب تفكيرهم، وفي طريقة حياتهم اليومية، وهو بالنسبة
 لهم الهوية الماضي والحاضر والمستقبل، ثم تنهى رسالتها
 بقولها: "إني محمدًا أتى بالإسلام، والإسلام دين سلام ووفاء، وأنه
 لن يخفى ولن يذوي أبدًا، وإن بقاءه في صفواته وقوته هو خير
 للبشرية، لأنه يدعو، كما دعا محمد، إلى إرساء قواعد الحب
 والعقل والسلام الإنساني".

وتسجل الباحثة البريطانية كارين أرمسترونج في كتابها "سيرة النبي محمد" ظاهرة استمرار الكراهية العربية القديمة للإسلام، والنظر إلى النبي محمد على أنه عضو، لهذه الكراهية والعداء بواصلان أروهاهما حسب تعبيرها على جانبي المحيط الأطلسي، ولم يجد هناك ما يمنع الناس من الهجوم على هذا النبي، حتى ولو لم يعرفوا عنه إلا القليل!

وتحاول الباحثة تفهم أسباب ذلك العداء، وهي ترجعه إلى التحدي الذي واجهه العرب من الدولة الإسلامية، ومن الفكر الإسلامي، وقد استمر هذا التحدي لقرون.. فعندما نشأت الإمبراطورية الإسلامية، في القرن السابع الميلادي، واستتكت الفتوحات الإسلامية بسرعة لتشمل العالم المسيحي في الشرق الأدنى وشمال أفريقيا، وهي المناطق ذات الأهمية القصوى لكنيسة روما، بدأ أبناء الغرب المأخوذون بهذا الفجاء السريع والداهم للإسلام يتساءلون: "إذا ما كان الله قد تخطى عن المسيحيين ورضى عن الكفار؟" وعندما خرجت أوروبا من عبورها القديمة وجدت استمرار توسع الإمبراطورية الإسلامية قائما وكانت أوروبا عاجزة عن التأثير في تلك الثقافة القوية والدينامية، وكان للفشل هو مال المشروع للصليبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، بل إن الأتراك العشائين لم يلتفتوا أن جاؤوا بالإسلام إلى عتبة دار أوروبا نفسها، وكان من المحال على المسيحيين الغربيين، بسبب هذا الخوف، أن يلتزموا العقلانية أو الموضوعية إزاء العقيدة الإسلامية. وفي الوقت الذي كانوا يفسجون فيه خيالاتهم المخيفة عن اليهود، كانوا يرسمون

صورة شائنة لامتدادهم بعكس بواحي قللهم الدينية
 كاني علماء العرب بهاجمون الإسلام بعسره عقيدة تجديف
 في الدين، ويصفون محمدا بأنه المدعى الاشر، ويهمونه بأنه
 انشأ دينا يقوم على العنف، ويمتشق السيف لفتح العالم. واصبح
 اسم محمد بمثابة الفجع الذي يحيف الناس في اوروبا، وكانت
 الامهات يستعملن نفس القطة في تخويف اطفالهن العصيين.
 لقد تحولت هذه الزوينة المريعة والكاذبة للامتداد وسي الاسلام
 لتصبح مؤثرا اساسيا في نظرة العرب الى العالم اوسمسي.
 وعندما التقى المسلمون بالعرب الامستعماري في انفرنيس الثامن
 عشر والتاسع عشر اعجب كثير من المسلمين -بحصرة العربية
 الحديثة، وحاولوا تقليدها، لكن المستعمرات اسبغته لثوروميين
 والأمريكيين طوال القرنين الماضيين حولت هذا الاعجاب
 الاسلامي الى استياء مرير، وايظ هذا الاستياء المبرور من جانب
 المسلمين الموروث العدائي القديم للعرب تجاه الاسلام
 والمسلمين.

وبعد ان تستعرض الباحثة بعض الكتب الغربية القليلة التي
 تروى السيرة النبوية، وتبدي ملاحظاتها النقدية عليها، تقدم
 للقرارئ المسبج الذي ستبعمه، والذي يختلف بعض الشيء عن كتاب
 السيرة الأخرين من الغربيين، نقطة انطلاقها الى المصادر
 التاريخية الإسلامية تجعلها تعرف الكثير عن النبي أكثر مما
 تعرف عن مؤسسي الأديان الأخرى، كما ان دراسة حياته يمكن
 ان تهبنا ادراكا عميقا ومهما لطبيعة التجربة النبوية بجميع
 الأدبائ تمثل حوارا بين حقيقة مطلقة تستعصي على التجوير،

وبين الأحداث النديوية، وفترة نبوة محمد تنحيز لنا أن نخصص هذا الحوار لخصم دقيقاً لوثق مما يتيسر للباحثين في العادة.



وتستعرض الباحثة البريطانية المحد من الأساطير والحرفات التي صنعها المؤلفون العربيون في العصور الوسطى ليشوفا بها صورة نبي الإسلام في خيال شعوبهم ومن أبرز هذه الأساطير اسطورة "ماهاوند" وهو أحد الأسماء العريقة التي أطلقوها على النبي العظيم، بداية من القرن الثاني عشر الميلادي، و"ماهاوند" هذا هو عضو الممالك المسيحية، ويوضح الباحث ر. و. ساندون في دراسة له عن "صور الإسلام في العرب إبان العصور الوسطى" عملية صناعة الأساطير الغربية عن الإسلام بقوله: "لأنك أنهم عندما صنعوا هذه الأساطير والأوهام، كانوا يرون أنها تمثل الصورة الحقيقية، إلى حد ما، للواقع الذي تصفه، ولكنها اتفقت بعد كتابتها طليعا أدبيا وهبها حياتها الخاصة. ولم تتميز كثيرا صورة محمد وقناعه من أبناء الصحراء، على مستوى الشعر الشعبي، من جيل إلى جيل". وتري الباحثة أن الطابع الخيالي لشخصية "ماهاوند" في الغرب، راد من الصعوبة التي يواجهها الناس اليوم، إذا حاولوا النظر إلى شخصية النبي، باعتباره شخصية تاريخية جذيرة بالدراسة الجادة. وتشير إلى اتفاق سلمان رشدي وسوء نيته في اختياره الصورة الخيالية لشخصية "ماهاوند" في روايته "آيات

شيطانية" لتتطابق على أعلى مستوى مع الأوهام الغربية
الراسخة.

وتكشف الباحثة عن الروح الاستعمارية التي سادت بين بعض
مفكرى القرن التاسع عشر، فأوحى إليهم بتفوقهم على الأجناس
الأخرى من الهمج في آسيا وأفريقيا، والتي انعمت في النظرة
إلى الإسلام، ويمير الشاعر الفرنسي "شلتوبريان" عن هذا المثل
الصلبيبي الأعلى بعد أن بهرته حملة بابلون، فكتب يقول: "أن
الصلبيين حاولوا نشر المسيحية في الشرق، وهي أقرب الأديان
إلى إنكاء روح الحرية، ولكنهم اضطنموا في جهودهم الصليبية
بالإسلام، وهو عقدة معادية للحضارة، فهي تشجع بانتظام على
انتشار الجهل والاستبداد والرق" ومن الطريف أن بعض مفكرى
العصور الوسطى كانوا يهاجمون محمدا لأنه منح الطبقات
الفيرة سلطات أكثر مما ينبغي، مثل العبيد والعباء، ولذلك أيدت
الثورة الفرنسية إعجابها بالإسلام، لا لأنها عرفت أكثر، ولكن
لأنه أصبح متوافقا - من وجهة نظرها - مع شعاراتها!
ومن الطريف أيضا ربط الصليبيين الجدد في القرن التاسع
عشر بين اليهود والعرب، واعتبارهما معا - كما كتب شلتوبريان
هذا "مجموعة متخلفة من عناصر الطبيعة البشرية" ثم يصيف
المريد من حز عبائته العصرية "بشيد المرء دلائل في كل شيء
على أن العصر الساسي، فيما يبدو لنا، عنصر ناقص بسبب
بساطته. وإذا كان لي أن أصرب لذلك مثلا، لفت أن مقارنته
بالأسرة الهندية الأوروبية تشبه مقارنة رسم بالقلم الرصاص
بلوحة زيتية، فهو ينتقل إلى التنوع والثراء والحفول بالحياة،

وهي شروط الكمال".

ويدفع الفرنسيون الآن عالياً ثمن هذه الأفكار العصرية
للصهيونية العالمية أما عدوهم للإسلام والعرب فيستمر بلا
مقابل!



الوحي.. اللقاء بالحقيقة المطلقة

لا تزال الأمور المغسية للوحي، والأشرافات العليا للأرواح
العظيمة، تبنى على التحليل الجاف القاصر على ما تركه
المناهج البشرية في بحثها لأدب عن الحقيقة.. ولا تزال الحقيقة
داتها، ومن يد عظمها التي تصل إلى حدود القداسة، ملتزمة
وحالة بوجه، ودلت تجليات متعددة، تعطي لأشواق الناس إليها
المعنى والأمل.

ومن الحقائق التي تربط الأرض بالسماء والله بالإنسان،
والعيب بالواقع، والبشرى بالمقدس: حقيقة الوحي الإلهي كأحدى
الحقائق العظمى.

لقد عاش الرسول العظيم - قيل لقائه بالوحي - خبرات
روحية وإنسانية صيقة من تلك الخبرات التي تساعد الأفراد
الأكفاد، على الوصول إلى حالة من سمو والشفعية تعلو فوق

خبراتهم للعانية، إلى لروى والأحلام المحملة بالوعود المصيبة والصانقة كخلق الصبح، إلى الخبرة العظمى واللقاء المقدس مع الوحي الذي رواء النبي صلاة الله وسلامه عليه، ونقلته إليها كتب السيرة النبوية، والذي بدا بظهور الروح القدس إلى جانبه وهو يتعبد في الجبل، طالبا منه أن يقرأ، وكانت اجابته الأولى: "أنا بفارئ". لست من القلة الفارئة في مكة ولست من رواة اساطير الأولين، ولست كماها يقرأ الطالع. ثم يطوفه جبريل حتى يبلغ منه الجهد، فيطلق لسانه بأول آيات القرآن الكريم "اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم" ويرثد للجدد النبيل، ويشعر أن ما حدث فوق الاحتمال فيندفع من مكمنه الجلي، ليستلق القعة، وليظهر له جبريل ثلثية، وصوته يملأ افاق السماء، يقول له يا محمد انت رسول الله، وأنا جبريل، قال: فولفت انظر اليه فما اتقدم لو اتأخر، وجعلت اصرف وجهي عنه في افاق السماء، قال: فلا انظر في ناحية منها إلا رايته كذلك، فما رلت واقفا ما اتقدم امامي، وما ارجع ورائي" (سيرة ابن هشام).

وتحاول الباحثة البريطانية كارين ارمستروغ في كتابها "سيرة النبي محمد" أن تقرب بين الفارئ العربي المعاصر، وبين استيعاب ذلك الحضور الساحق للوحي الإلهي إلى النبي، منية أن هذا الإحساس الطاعى بالحقيقة المقدسة الذي انتاب محمدا سلام الله عليه وصلواته قد استحق على أثر انزلك حضور الرسل والأنبياء في معظم النواميس، وفي المسيحية، وصفت بلها رعية غامضة ومبهرة، وسميت في اليهودية بالمقدس (..)

وكل ما خبره هؤلاء الأنبياء هو سمو حقيقة تتواجد خارج نطاق المفاهيم، وتدعوها عقائد التوحيد (الإله) وترجع طبيعة التجربة الرهيبة إلى كونها قد سقطت كلا من أولئك الأنبياء إلى عوالم مجهولة، ناتية عن ملوان ما هو طبيعي من الأمور، كل ما فيها صادم، ولكنها أيضا مبهرة وتعارض جانبية لا تقاوم، ذلك لأنها، وبطريقة ما، تعمل معها ذكر شيء مألوف يرتبط ارتباطا معتدا بأصاقل النفس^١.

لم يكن في وعي القنبي تعاليم دينية سابقة تساعد على فهم ما حدث واستيعابه، لم يكن ثمة غير السيدة حديجة الزوجة الرؤوم، التي بقيت بنفسه في حجرها وهو يرتعد طالبا منها أن تشره لتخفيفه مما حدث له، وكانت السيدة العظيمة عند حسن ظن نبيها في تلك المرة، وهي المرات التالية التي زاره فيها الوحي.

كانت السيدة العظيمة تعرف محمدا كما تعرف نفسها، وكان ذهنها الأمومي مساعدا على اجتياز مرحلة الحوف، لتهذا النص النبوية إلى ما صارت إليه: "أبشر هو الله لا يحزبك الله أبدا، والله إليك لتصل الرحم، وتصلق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتعمل الكل، وتقرى الصبيب، وتعين على موائب الحق". هكذا تكلمت السيدة حديجة، وعندما ذهبت لاسي عنها ورقة بن نوفل العارف بالكتب المقدسة السابقة ليبريدها يقينا، صاح من فور: قدوس قدوس والذي نفس ورقة بيده، لأن كنت صدقتني يا حديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولني له: للثبث^٢.

وحينما ابصر النبي بعد ذلك في الكعبة أسرع إليه وقبله على

جيبه.

وتشير الباحثة البريطانية في تحليلها لحقيقة الوحي، إلى أن كل الأفكار الخلاقة الثلقائية موحاة، وتتطلب بكرة إلى الأمام في عالم الحقيقة غير المختلفة. وإذا نحن نظرنا من تلك الراوية، فإن الوحي لا يعني تراجع العقل، لكنه العقل وقد تزايدت مرجته، وتم تكثيف محتوياته. لقد كان محمد قد وصل - قيل الوحي - إلى أحراق المشكلة التي تواجه مجتمع مكة، وجاء القول بحل روي اجتماعي وسياسي، لم يخطر على تفكيرهم من قبل، لكنه لبى أصق أمانتهم وطموحتهم.



(٧)

قصص الأنبياء..

أو عرائس المجالس

لعل أشهر كتب قصص الأنبياء في التراث العربي الإسلامي، هو كتاب "عرائس المجالس"، لأبي إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري المعروف بالثعلبي والمتوفى عام ٤٢٧ هـ، وقد كان للثعلبي واعظاً غلب عليه القصد، كما يقول مقدمه. وينبتنا الثعلبي منذ بداية كتابه أنه سيشرح قصص الأنبياء المذكورة في القرآن.. ثم يعهد لعمله بذكر بعض وجوه الحكمة في قصص سبحانه وتعالى اختيار الماصين علي سيد المرسلين، وأثنى بشير إليها قوله تعالى "وَكَلَّا بَقِصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الزَّمَانِ مَا نُثِبَتْ بِهِ يُؤَاكِلُكَ". وما فائته الحكماء بأن هذه القصص جاءت لخمسة أمور.

أولها: إظهار نبوته، ودليل على صدق رسالته، لأنه صلى الله عليه وسلم لم يحتلف إلى معلم، ولم يرحل في طلب العلم ليعرف أخبار الأولين، أتى أن جاءه الوحي الإلهي، فأخذ يحدث بأخبار ما مضى من القرون، وسير الأنبياء الماضين، والملوك المتقدمين فمن كان من قومه غافلاً موقفاً صدق بما يوحى الله إليه، وأجازه إياه بذلك، فامن به ومن كان عنوا معاندا حسده وجده وانكر ما جاء به وقال كما أخبر الله تعالى "وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكتتبها فهي تملئ عليه بكرة وأصيلًا" وقال الله تعالى تكذيباً لهم وتصديقاً لنبيه عليه السلام: "كل أنزله الذي يعلم

للسر في السموات والأرض".

والحكمة الثانية من القصص القرآني عن الأنبياء، هي الأسوة الحسنة، والعبرة بدلالات الأحداث، والقنوة بأخلاق الرسل، والنهي عما وقعت فيه أمتهم من خطايا استوجبت العقاب الإلهي، وبذلك تم الله لنبيه معالي الأخلاق وألب الأنبياء، ثم أثنى عليه ربه بقوله "وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ" ولذلك وصفته أم المؤمنين عائشة حين سئلت عن خلقه، بقولها رضى الله عنها "كَانَ خَلْقَهُ الْقُرْآنُ".

ويستخلص المؤلف من أقوال الحكماء عن الحكمة الثالثة في سرد قصص الأنبياء على النبي أنها اعلاء من شأنه صلوات الله وسلامه عليه وشأن أمته، فاطلاعه على أخبار الأولين وقصص المتقدمين، اعلمه أنه عوفي هو وأمته من كثير مما امتحن به الله الأنبياء والرسل، وخفف عنهم في الشرائع، ورفع عنهم الانتقال والأهلال التي كانت على الأمم السابقة. وقد أول بعض المفسرين قوله تعالى: "وَأَسِغْ لَكُمْ نَسْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً" بأن النعمة الظاهرة هي تخفيف الشرائع والنعمة الباطنة تصحيب الصنائع، قال تعالى: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ" وقال تعالى: "وَمَا جَعَلْنَا عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ" وقال تعالى: "يُرِيدُ اللَّهُ لِيُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا".

ويؤكد المؤلف في مقدمته قصص الأنبياء على قيمة السعادة واليسر الإسلاميين اللذين اقتصن بهما الله المسلمين، مشيراً إلى فخر النبي عليه السلام بأنه بعث بالحنيفية السمحة. وفي الحكمة الرابعة من إيراد القرآن الكريم لقصص الأنبياء

يلبس المؤلف نقلا عن الصواني المعروف الشبلي، اختلاف
مستوى التلقي لهذه القصص بين العامة والخاصة، حيث اشتمل
الملم بذكر القصص (أي بسردها وروايتها والإضافة إليها)
واشتمل الخاص بالاعتبار بالقصص.

والاعتبار بالقصص يورث إلى التأمل في الأنبياء وثوابهم، وفي
أعدائهم وجلحدي رسالاتهم وعقابهم، وتحدير القرآن الكريم، في
غير موضع، عن صنع الأعداء ومواقفهم، والحث على الاقتداء
بالأنبياء والرسول. يقول الله تعالى: لقد كان في يوسف وإخوته
آيات للمتأملين ويقول: لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب
وهدي وموعظة للمتفكرين ونحوها من الآيات.

والحكمة العارضة هما قصة الله على نبيه من قصص الأنبياء
والرسول الماضين، هي إحياء نكرامهم وأثارهم ليكون المحسن
منهم في إبقاء ذكره، مثبتا له تعجول جرائه في الدنيا، حتى يبقى
ذكره وأثاره الحسنة إلى يوم القيامة، كما رغب خليل الله إبراهيم
عليه السلام في إبقاء الثناء الحسن، فقال: "واجعل لي لسان
صنق في الآخرين" والباس أحاديث. ويقال ما مات ميت والذكر
يحييه والنشد للزبيدي:

وأما المرء حديث بعده... فكان حديثا حسنا لمن وعى
وقد صنف النحلي كتابه "عرائس المجالس" على نسق كتب
المؤرخين القداس. فهذا بصفة خلق الأرض، وكيفيتها، وحدودها
ومسافاتها، وطبقاتها وسكانها، ثم ذكر الأيام التي خلق الله فيها
الأرض، وأسماءها وألقابها وهو يستند إلى وهب بن منبه،
باعتباره أشهر رواة أخبار الأولين، إن أسماء الأرض السبعة

هي: الأديم - البساط الثقيل البطيخ - المتثقلة العاسكة
 الثرى. وأما أسماء الأرض المذكورة في القرآن فهي سبعة أيضاً:
 سماها الله فرائشا، فقال تعالى: "الذى جعل لكم الأرض فرائشا"
 وسماها قرارا، فقال "ثم من جعل الأرض قرارا" وسماها رتقا،
 بقوله "لو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا
 ففتقناهما" وهي بساط، "والله جعل لكم الأرض بساطاً" وهي مهاد
 "ثم جعل الأرض مهاداً" وسماها ذات الصدع، "والأرض ذات
 الصدع" ويعنى به الثبات، وسماها كفاتا "ثم تجعل الأرض
 كفاتاً".

وكما يستعين صاحب "عرائس المجالس بالموروث القديم،
 والإشارات القرآنية، يستعين بمعتقدات العرب قبل الإسلام عن
 الأرض، الذين كانوا يرون أنها "الأم التي منها الخلق، فهي أولى
 بأولادها أن يردوا إليها" وقد عبر الشاعر الجاهلي لمية بن أبي
 الصلت عن هذا المعنى شعرا بقوله:

والأرض معقلاً وكانت أمنا.. فيها مقابرنا، وفيها مولد!
 وقد امتدت هذه الرؤية في العصر الإسلامي، فقد سئل يحيى
 بن معاذ اللزاري عن أبيه عن ابن عمر بن زبني عن الدنيا ليست بدار قرار، فلم
 يطمئن إليها؟ فقال: لأنه منها خلق فهي أمه، وفيها شأ فهي
 عشه، ومنها رزق فهي عيشه، وإليها يعود كفاتة، وهي مقر
 الصالحين إلى الجنة.



قصة خلق الأرض والإنسان

يتابع القارئ في كتابه المهم عن قصص الأنبياء، المسمى بـ "عرائس المجالس" قصة خلق الكون والإنسان، مستفيدا بطريقة العهد القديم الذي يبدأ بسفر التكوين، ولكنه لا يكتفي بإشارات وروايات العهد القديم، بل يعتمد في هذا الباب معظم ما وصله من مروييات وأخبار شفهية أو مدونة ليحفظ لنا ثروة كبيرة من الحكيمت والأساطير التي حاول من خلالها العقل الإنساني في تلك المرحلة التاريخية تفسير ظواهر الوجود ومعجزة الخلق البشري.

ويقرا القارئ دلالات كلمة "الأرض" في القرآن الكريم ليربطها بمعانيها التي فهمها المفسرون والمؤرخون القدامى. ثمة سبع دلالات لكلمة الأرض كما وردت في القرآن الكريم. فهي: إشارة إلى أرض مكة في الآية "لو لم يروا أنا ذاتي الأرض ننقصها من أطرافها" وهي إشارة إلى أرض المدينة، في الآيات: "لو لم تكن

أرض الله واسعة فتهاجروا فيها" و"إن أرضي واسعة" و"إن كانوا يستغفرونك من الأرض ليخرجوك منها" وهي إشارة إلى أرض الشام، في قوله تعالى: "اتخلوا الأرض المقسمة" وقوله تعالى: "ومجناه ولوطا إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين" وهي أرض مصر، في الآية "وكذلك مكنا ليوسف في الأرض" وقوله تعالى "قال اجعلني على خزان الأرض أني حفظ عليم" "ولو أبرح الأرض" و"إن هرعون علا في الأرض" ويستحللكم في الأرض" وكلها إشارات إلى أرض مصر.. ويستخدم القرآن الكريم كلمة الأرض بمعنى أرض المشرق، "إن ياجوج وماجوج مضبون في الأرض" كل العرب يعتقدون أن أرض ياجوج تقع في أقصى الشرق، وفي الرحلة الشهيرة التي كلف بها الخليفة العباسي الرحالة ابن فضلان طلب منه استطلاع بلاد ياجوج وماجوج ضمن رحلته.

ثم يستخدم القرآن الكريم لفظ الأرض بمعنى عموم الأرض في الآيات: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها" و"وما من دابة في الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم"، ويفسره التلمني بأن هذه المخلوقات أمم مثلاً في التصوير والهيئة، كما فيها مسخرة مثلاً لعمارة الأرض، ثم في قوله تعالى: "ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام" بمعنى تحول لشجار كل الأرض إلى أقلام.. وسابع دلالة لفظ الأرض في القرآن هو ما يشير إلى الجنة وأرضها في قوله تعالى: "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون" وقوله تعالى: "وأورثنا الأرض نقيباً من الجنة حيث نشاء فعم

أجر العاملين".

وبعد أن يتتبع للتعليق قصة خلق السموات وموردا الموروث
الديني القديم، ومحاولا التوفيق بين هذا للموروث وبين ما ورد
في القرآن الكريم عن السموات وخلقين، يصل إلى قصة خلق
أدم البشر آدم، أخذا برواية العهد القديم الثانية التي وصلته عن
طريق تراث الإسرائيليات، ومحاولا تفسير قصة الطلق والخروج
من الجنة في ضوء هذا الموروث، لكن ما يلفت النظر هنا، أنه
يورد كل الروايات التي وصلته ولا ينحاز إلى أي منها، وبذلك
حفظ لما الكثير من الحكايات والأخبار المقدمة عن قصة الخلق.
والى صفة "خلق حواء عليها السلام" ينقل عن المفسرين الذين
سبقوه، والذين يبدو أنهم أخذوا بالرواية الثانية في سطر التكوين
عن خلق حواء بعد خلق آدم ومن صلحه، يقولون: "لما أسكن الله
تعالى آدم الجنة كان بمعنى فيها وحشياً، لم يكن له من بجالسه
ويؤانسه، فالتقى الله تعالى عليه اليوم فقام، فأخذ صلحا من
أصلحه من شقه الأيسر يقال له القصيرى، فخلق منه حواء دون
أن يشعر آدم بذلك ولا وجد له ألما، ولم أولم (تألم) من ذلك لما
صطف رجل على امرأة، ثم لبسها من لباس الجنة وزينها بأنواع
الزينة وأجلسها عند رأسه، فقالت الملائكة لأدم يستحلون عظمه
ما هذه يا أدم؟ قال: امرأة! قالوا: وما اسمها؟ قال: حواء..
قالوا: صدقت، ولم سميت حواء بذلك؟ قال: لأنها خلقت من شيء
حي، قالوا: ولماذا خلقها الله تعالى؟ قال: لتسكن إلى وأسكن
إليها.

وبعد أن تتبّع للتعليق قصة خلق حواء كما جاءت في كتب

المفسرين يتبع قصة محبة الخروج من الجنة كما ذكرها اهل التاريخ على حد تحيزهم. وهو يفعل في هذه القصة مثلاً فعل من قبل بايزاد كل الروايات والأحداث والأشعار التي وصلت عن هذه القصة، ومما يورد في هذا المقام الرأي الذي يرى ان الله تعالى أخرج آدم من الجنة قبل ان يدخله فيها، وذلك لقوله تعالى: "فما جادل في الأرض خليفة" ولم يقل: في الجنة. وهناك من يرى ان الجنة هي الرحم الذي لدى سرور إليه بعد التفكير عن الحملية في الأرض، او بعد ان ينخلص البشر من لا يستحقون الولاية والحياة في الحضيرة المقدسة.

ويذهب اهل الاخبار الى انه اول من بسج الصوف، وإلى حواء انها اول من عرفت، لينحدا منه ثوبين يقيهما شرود البرد، ويربط المؤلف بين حرفة غزل وبسج الصوف وبين التأمل والتفكير، والتفكير يورث الحكمة، والحكمة تجرى في الجوف مجرى الدم، فمن أكثر تفكيره قل طمعه، ومن قل تفكيره أكثر طمعه، وعظم بدنه، وقسا قلبه، والقلب القاسي بعيد من الله بعيد من الجنة قريب من النار.

ويذهب إلى ذهب بن ميمون ان الله قد أوحى إلى آدم بعد ان كفر عن خطيئته وتاب عليه، ان يجمع له العلم كله في أربع كلمات. واحدة لله تعالى، واحدة للإنسان، واحدة بين الله وادم، واحدة بين ادم وبين الناس. فاما التي لله، لا يشرك به شيئاً، واما التي للإنسان، فيلزم الله بجزية بعمله كل ما يحتاج إليه. واما التي بينه وبين الله، فبأن يرضى الله الامتجانية واما التي بينه وبين الناس، فإن يرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ومن الطريف هنا تلك الرواية التي تنسب الى آدم أول من قال
الشعر والعربية، عندما علم بقتل ابنه قابيل لأخيه هابيل، وهي
جريمة القتل الأولى التي تغيرت من حولها الأظعمة، وانجبرت
الأرض، فقال شعرا:

تغيرت البلاد ومن عليها.. فوجه الأرض مغير قبيح. الخ!!
ويورد المؤلف ما قاله ابن عباس عن هذا الأمر، 'من قال أن
آدم قال الشعر فقد كذب على الله ورسوله'.



(٨)

قصة أبي البشر آدم
بين التوراة والقرآن

.. ترى المكتورة نبيلة ابراهيم في دراستها عن "السيرة النبوية بين التاريخ والخيال الشعبي" ان الإسلام قد غير من مفهوم العربي للرمز، فلم يعد الرمز عند العربي المسلم زمنا حسيا مسميا فقط، كما كان عند اسلافه قبل الإسلام، بل أصبح الرمز الى جانب حصيته ونسبته كونيا وسمويا ايضا مرتبطا بالبعث والحساب على ما فعله الإنسان في دنياه.

"وهذا أول تعبير انتقله الإسلام على مفهوم العربي لوجوده في الحياة. وهو مفهوم كميل بان يزيل الإحصاء بالخلق حيث انه لم يوجد فيها الا ليموت. ثم أكد الإسلام هذا المفهوم بتوضيحه لمسؤولية الإنسان في الأرض، فهو لم يخلق الا من اجل السعى لحياة افضل، ولا يتحقق هذا الا من خلال اتصال عقله في اختيار العمل الصالح وبعد العمل الطالح، وبهذا يكون الإنسان مسؤولا عن النتائج، بقدر ما سيكون مسؤولا عن المقدمات. كما انه سيحاسب على ان ما يفعله يكون وسيلة للبناء وليس معولا لهدم. ذلك ان الحياة بوصفها نظاما كليا لا يمكن ان تستقيم الا إذا رجحت كفة الخير على الشر، فإذا حدث عكس هذا واستشرى الشر بين قوم أبادهم الله وأهل محلهم قوما آخرين، كما حدث لعاد وثمود وغيرهم".

وتكسر الباحثة انطلاقا من هذا المفهوم قصة أبي البشر آدم

في نصها القرآني، فالقصة القرآنية عن خروج آدم من الجنة وبروئه إلى الأرض، تختلف في صياغتها ودلالاتها عن نص القصة، كما وردت في التوراة، على الرغم من التشابه بين القصتين في خطوطهما العريضة، فالقصة القرآنية تبدأ قبل خلق آدم: "وَدَّ قُلُوبُ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ أَنْ يَجْعَلَ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُصَدِّقُ فِيهَا وَيُضِلُّكَ الدَّمَاءُ، وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ أِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ". وهذا يعني صراحة النص على أن آدم خلق ليعيش في الأرض لا في السماء، ولم يكن ما حدث في الجنة إلا برهان على اختلاف آدم عن الملائكة المنبرلين من النجيب، فهو معرض للغواية، وعطيه وحده تقع مسؤولية التفرقة بين الخير والشر وبناء على ذلك فإن قصة آدم في القرآن لم تهدف إلى إثبات خطيئة آدم، كما أقرتها التوراة والإنجيل، بل إلى ما فعله آدم بشور إلى طبيعة الأئمة ساكني الأرض".

ثم تؤكد الآيات القرآنية بعد ذلك حكمة الخالق في صيغة آدم على هذا النحو، وذلك في قوله تعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ، فَقَالَ أَقْبُلُوا مِنْ آدَمَ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ" وليست أسماء المسميات مجرد أسماء، ولكنه الإنزاع الذي يميز بين لشيء وغيره "بل لنقل أنه العلاقة بين الإنسان والموضوع. وهنا يمثل جوهر طبيعة الإنسان.. وجوهر قيمة وجوده في الأرض، ويتحدد هذا الجوهر بأن للإنسان فكر يتحرك في كل ما حوله، وهذا الفكر ينطلق مرة من الداخل إلى الخارج، ومرة أخرى من الخارج إلى الداخل".

وتنتهى قصة آدم كما وردت في القرآن الكريم بوجبه
 لتبعاته وتحمله لمسؤولياته، وهما أساس تصالحه مع ربه،
 ورضاء الله عنه "فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، أنه هو
 الثواب الرحيم" ثم تحسم للقصة بقوله تعالى "إنا عرضنا الأمانة
 على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفق منها،
 وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا" لقد حمل الإنسان
 مسؤولياته للجسم على عاتقه ليعيش بها ولها على الأرض،
 وليصبح مسؤولا عن صنع حياته وحياة الجماعة الإنسانية التي
 يعيش بين ظهرانيها. هذه الحياة التي هي في نهاية المطاف
 مجرد حلقة من حلقات التاريخ الإنساني، الذي أصبح الإنسان
 مسؤولا عنه بالتعبئة لكل هذه المفهومات أصبحت واضحة في
 عقل المسلم، بل أنه وسعها وساعها على شكل مسائل فلسفية أو
 كلامية حاض فيها عطاء الكلام من الأشاعرة والمعتزلة، بعد
 قيام الدولة العباسية، وبعد أن انتقل الجو الأدبي والفلسفي، كلية
 إلى البصرة ثم إلى بغداد.

ولذلك لم يكن غريبا أن يبدأ تدوين السيرة النبوية في بغداد
 فقد طلب الخليفة أبو جعفر المنصور من محمد بن إسحق أن
 يولف لأبيه المهدي (الخليفة هبما بعد) كتابا يذكر فيه كتاب البشر
 منذ خلق الله آدم عليه السلام، إلى يومنا هذا، فذهب فصنف هذا
 الكتاب، فقال الخليفة لقد طوّلته يا ابن إسحق اذهب فاختصره،
 فذهب فاختصره، فهو هذا الكتاب المختصر (يعني سيرة ابن
 هشام التي وصلتنا) والتي الكتاب الكبير هي خزنة أمير
 المؤمنين. لقد كان مقصد الخليفة المنصور أن يصنع بين يدي أبيه

المهدي الذي سيرث الخلافة من بعده، كتابا يلم بأحداث الماضي ليكون تحفيرة تعينه على صنع الحاضر والمستقبل. وكان التاريخ في وعي الخليفة المصافي، هو أساسا تاريخ العرب في ماضيهم وحاضرهم، وكان الإسلام، حيث تقع الحبر النبي صلى الله عليه وسلم وحكمه وتعليماته وحروبه في بؤرة هذا التاريخ المطلوب تدوينه، فمن أجل نشر دعوة الإسلام، تمت الفتوحات وبنات الدولة ولدت وكبرت مسؤولياتها ومسؤوليات المسؤولين عنها من الخلفاء. لقد أصبح التاريخ العربي في وعي للمسلمين قيمة حضارية تؤكد وجود الذات الحاضرة، وتساعد على فحص الفكرة السائدة عند العرب قبل الإسلام والتي ترى الحياة مجرد مزاج عبور، معلومة البداية والنهاية تبدأ بالميلاد وتنتهي بالموت. ثم تعد الحياة كما عبر عنها الشاعر الجاهلي عمرو بن كلثوم، في معلقته الشهيرة:

وكأن قد شربت بعلبك والخرى قد شربت بقاصرنا
وأنا سوب لأركنا الدنيا مقدرة لنا ومقدرنا
بل أصبحت الحياة الإنسانية موصولة بالله، وخاصة لمعيار الحق والحيز الجماعي، أصبحت سلسلة متصلة الحلقات تبدأ بالماضي لتستمر في الحاضر. وأصبح للإنسان وجود تاريخي.



وهناك تناقص واضح بين قصتي خلق الإنسان الأول اللتين وردتا في الأصحاحين، الأول والثاني من سفر التكوين في العهد القديم من الكتاب المقدس (التوراة). هي الأصحاح الأول ورد

ان الله خلق حتى اليوم السادس من بدء الخليقة كل الكائنات الحية التي تعيش على الأرض لو هي الماء او في الهواء ثم خلق أخيراً ادم وحواء كليهما، على صورته. اى أن الإنسان قد خلق بعد أن خلقت الكائنات كلها، وأن الإنسان منذ البداية قد انقسم الى ذكر وانثى، وأن كلا منهما كان يعكس بنفس الدرجة عظمة الأصل الإلهي.

لما الإصحاح الثاني من سفر التكوين تترد فيه قصة مختلفة، إذ نقرأ فيه أن الله خلق الإنسان أولاً، ثم خلق صيوف الحيوانات بعدها بعد ذلك، اب حواء فقد خلقها بعد ذلك، وشكلها من صلح امتزجه من ادم أثناء نومه.. ومن هنا يبدو أن النظام الذي خلقت الكائنات على اسامه معكوس في القصتين، ففي القصة الأولى تبدأ بخلق الكائنات الحية الأدنى من الإنسان وتنتهي بخلق ادم وحواء معاً، وفي الثانية يخلق ادم وحده حيث يقول الإصحاح الثاني: "وجعل الرب الإله ادم ثراباً من الأرض، وندخ في أنفه نسمة حياة، فصار ادم نفساً حية". ثم أراد الله أن يخفف من وحشة ادم في الجنة، فخلق الطيور والحيوانات، التي نظر إليها ادم وسماها باسمائها، ولكنه كان لا يزال غير راض عن هذه الزينة، فخلق له الله حواء من جزء من جسمه لتكون روحاً له ويعمر عالم البشر وبولوجيا الشهير جيمس فريزر في كتابه "الفلكلور في العهد القديم" التناقض الواضح بين قصتي الخلق، بأن كتاب التوراة قد استمداهم من مصدرين مختلفين، ثم جمعوا بين القصتين في كتاب واحد (سفر التكوين) دون أن يوائموا بينهما. وتبدو القصة الأولى مستمدة من الأصل الكهوتي الذي

كتبه رجال الكهوت اليهودي أثناء السبي البابلي، أو بعده، بينما تبدو قصة الخلق الثانية مستمدة من الأصل اليهودي الذي كتب قبل السبي البابلي بمئات السنين، وتحمل القصة الثانية قدراً من التشاؤم، كما تحمل نظرة دونية للمرأة، إذ تعزو إليها "محنة الجنس البشري وأحزابه التي سببه سلوكها المقسم بالحماقة السدوجة وشهواتها التي أطلقت لها العنان". .. وفكرة عودة أصل الجنس البشري إلى التراب، قديمة عند العبرانيين، إذ نجد أن كلمة "نساء" في اللغة العبرية، وهي الصيغة المؤنثة لكلمة آدم، معناها الأرض، وهي الأندب البابلي القديم أيضاً كان الناس يعتقدون بخلق الإنسان من طين، وكذلك الفراعنة والآخريين. وقد انتقلت هذه الفكرة إلى تلك الشعوب عن طريق أسلافهم الندانيين. وتصور القصة للتوراة طرد آدم وحواء من الجنة، وكأنها حوفاً من مناقشتها له في معرفة الخير والشر، وقبل أن يكتبها أيضاً صفة الخلود، إذا ما أكلا من شجرة الحياة المحرمة عليهما. "وقال الرب الإله: هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليحمل على الأرض التي أخذ منها".

وتقارن الدكتور بيبلة إبراهيم في مقدمتها لترجمة لكتاب فريزر المشار إليه سابقاً، بين ما روت التوراة وما رواه القرآن، لإلقاء مزيد من الضوء على مدى ما اعترض القصص الندي في التوراة من تحريف. قال تعالى في سورة البقرة: "وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة، وكلا منها رغداً حيث شئتما، ولا

تقربا هذه الشجرة تنكوبا من الهالكين، وقلنا اهبطوا بمنكم
لبعض عدو والكم هي الأرض مستقر ومتاع إلى حين"، كما قال
الله تعالى في سورة طه: "فوسوس إليه الشيطان، قال يا آدم هل
أعطاك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما
سوءاتهما وطفعا يخصعا عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم
ربه فعوى".

تقدم الآيات القرآنية المخطوط العريضة لقصة آدم وحواء منذ
أن خلقا في الجنة إلى أن طردا منها، ليحيشا هما وبسليهما على
الأرض حياة غير حياة التجريم، أو هي بتعبير آخر اختبار
لطبيعة الجنس البشري، تلك الطبيعة التي لارمت الإنسان منذ
بدا الخليقة حتى اليوم، وهي التي تتمثل في ضعفه أمام قوة
الإغراء القمادي. ولما كان التجريد من بعض خصائص القرآن
الكريم، لذلك فإن قصة آدم وحواء في القرآن تختلف اختلافا
جوهريا عن قصته في سفر التكوين من العهد القديم (المزورة)
ليس في طريقة السرد القصصي وحدها، وإنما أيضا في الهدف
والغاية من إيراد القصة

فحسب القرآن الكريم كانت عبارة آدم وحواء للعرض مقفزة
قبلا، كما كان عصيان آدم مقدرا من قبل وتصبح القصة الدينية.
هكذا، تأكيداً للطبيعة الإنسانية، وجواب ضعف الإنسان التي
جعلته هدفا لإغراء الشيطان.

وقد أراد بعض مفسري القرآن الكريم إضفاء المريد من
التفصيلات على القصة القرآنية التجريدية الطابع، فنكوا لحيالهم
القصصي مستعيرين بالموروث القصصي لأهل الكتاب مما

عرف به "الإسرائيليات" تصوير كيفية خلق الخالق لأنهم، والطريقة التي أحضر بها طين الأرض وطبيعة الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها، وإن كان هذا لم يمنع وجود مفسرين آخرين، وقفوا موقف نقدياً أمام هذه الروايات والتفصيلات المصافقة، مثلما يذكر ابن جرير الطبري أمام آراء المفسرين الذين وصفوا الشجرة المحرمة، فقال: "ولا علم عندما بأى شجرة كانت على التعيين. لأن الله لم يصنع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن لو في السنة الصحيحة، فإني يأتي ذلك من أتى، وقد قيل كانت شجرة النر، وقيل كانت شجرة العنب، وقيل كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها".



(٩)

التصورات العربية القديمة
لقصة الخلق

كان الشعر فيما قبل الإسلام هو الوسيلة الأساسية للتعبير عن المعرفة، وعن الذات الحربية الجمعية في المرحلة الشعاعية، وقد كانت كلمة "شعر" تعني أيضا "المعرفة والذراية". وكانت الجماعة العربية تعتقد أن الشعر ينبع من المنطقة التي تفصل بين البشر وبين القوى الغيبية غير المدركة! ورغم أهمية الشعر في حياة العرب قبل الإسلام، فإنهم بالتأكيد لم يكونوا يتحدثون شعرا طول الوقت، فقد كانوا في أحوالهم المعيشية يتحدثون بنثرا. لكن النثر في التراث الشعاعي لعرب ما قبل الإسلام قد صاغ بما حواه من أخبار وقصص وأساب، وما سجله من أحداث وحروب قبلية وعادات وتقاليد وشرائع، أهمها جامعو التراث في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، مركزين صلبهم على تدوين الشعر للندوى الوثني باعتباره إرشيدا لحياة عرب ما قبل الإسلام، وحتى ذلك الشعر، كان أغلبه قد هلك مع من هلك من أصحابه القداس، قبل مائتي عام من تدوينه، وهو الأمر الذي أشار إليه واحد من أهم المراجع عن تلك المرحلة، واعى كتاب "الأصنام" لهشام الكلبى، الذى يقرر أنه لم يحفظ من شعاع العرب غير شعر المرحلة القريبة من الإسلام.

وقد كان إدراك عرب شمال شبه الجزيرة لحدث الولادة وانعكاساته في معتقداتهم يوازي إدراك سكان المناطق الحضرية

تحدث خلق الله للعالم، وهو الأمر الذى تعبر عنه مصطلحات القرابة: - الرحم = ذو الرحم = الأخ من نفس الرحم - صلات الرحم - الحبل.

ويبرز فى الشعر البدوي القديم "الحبل الأول للقبيلة" كرمز لاندابة الوجود البيولوجي والاجتماعي بشكل عام. ولا يبدو واصحا فى ذلك الشعر وجود نخر سابق لهذا الوجود، ولا أساطير أو يقاي أساطير عن نشأة الكون، أو عن صورة الإنسان الأول قبل ما جاء فى التوراة والانجيل عن آدم أبى البشر.

والقدم بقايا الأسطورية العربية التى تصور نشأة البشر تعود إلى عصر الوحدة العموية والثقافية القديمة، وهو العصر الذى أصبحت فيه لغة موجودة مفهومة لكل العرب.. والنشأة البشرية فى يقاي تلك الأساطير تعود إلى ثلاثة أشكال اسمية: الأرض بع عليها من جبال ووديان وصخور وجناتل وكثير من القتاتل القديمة تنصب بنفسها لهذا الأصل: بنو صحر بنو جدل الخ.. أما شكل النشأة الثانى فينسب إلى النبات: بنو شجرة بنو حفظة الخ.. وينتمى الشكل الثالث إلى الحيوان والطير: بنو اسد بنو نمر الخ.

وتؤدى الكلمات: "صخرة حجر بحرة شجرة نمر" وغيرها من القاب الانتماءات وطيفة أسماء الماحين الأوتل لهذه التسميات، ومدلولها الحقيقي فى السياق العام للتصورات الأسطورية عن أصل الإنسان التى انتشرت فى اسيا الغربية وشبه جزيرة العرب. وتعود جذورها الدلالية إلى الأساطير القديمة، التى تضمنت روايات عن ظهور النمس الأولين. وهكذا

توجد علاقة محددة بين الألفاب الانتمائية: بنو صخر بنو حجر، وبين عبادة الأحجار التي انتشرت في شبه الجزيرة العربية في مرحلة ما قبل الإسلام، متسارحة مع عبادة الأجداد لدى قبائل عديدة. ويشير إلى ذلك ما يسوقه هشام الكلبى (بهاية القرن الثامن بداية التاسع) في روايته عن أن العقائد الوثنية القديمة في شبه جزيرة العرب نشأت من خلال لجلال الأجداد المؤسسين للسل، الذين جعلوا الأحجار رمزا لهم. وهذه الأحجار التي ترمز إلى الأجداد قد تحولت إلى إلهة وموضوعات للعبادة () وقد أظهر علم الأساطير المقارن أن مصدر اجلال وتقديس الأحجار والصخور يعود إلى التصور القديم جدا عن بشوء الإنسان الأول من الحجر. فقد تجلّى هذا، للتصور على الخصوص، في الأساطير الحديثة واساطير اليونانيين القدماء. وقد حفظت لصداء الأساطير عن بشوء الإنسان من للصخر والحجر في أسفار الأنبياء في الكتاب المقدس أيضا. وهذا التصور يعود كما يبدو إلى أقدم الطليقت من أساطير الفشوء الإنساني وبشوء القليلة عند ساميين الرحّل الزراعة الذين سكنوا الهضاب والروابي الصخرية ويشير القرآن الكريم والكتاب المقدس إلى خلق آدم من تراب، والكلمة التي تشير إلى التراب في الكتاب المقدس هي كلمة عبر" التي تعني الغبار الأرضي. وهي في اللغة الأكادية السامية هي الأخرى بنفس المعنى دون أن ترتبط بخلق الإنسان، وهي بنفس المعنى في الآرامية والحيثية. [وكلها فروع من المجموعة العروبية السامية] الأمر الذي يشير إلى معرفة عرب ما قبل الإسلام

للتصور القاتل بخلق الإنسان من التراب، والذي عرفته التوراة والإنجيل. وقد كان العرب المجاورين لبيروت المسيحية يسمون المسيحيين بـ "بنو عيرة" مثلما ورد في ملحقة طرقة بن العبد لأن المسيحيين ينتمون إلى اسم أبي البشر، بينما يلتصق باليدو سكان المصارب المشركة إلى اسمان آخر. ويصغر بعض الدخثين الاختلاف بين الأسطورة التي تعود بخلق الإنسان الأول من الطين، وذلك التي تعود بخلقه إلى عمار الأرض، إلى كونهما تعبيران عن حالتين من ثقافات الأسطورية "هذه الروايات متشابهتان من حيث المضمون، ولكنها يختلفان في مظهر المادة التي استخدمتها الآلهة لخلق الإنسان: فهي طين في الحالة الأولى، ومن عمار الأرض الرمل في الحالة الثانية، وهذه الاختلافات في جوهر المادة الأولى للخلق إنما تعود، كما يبدو، إلى اختلاف التربة في أماكن سكن مبدعي هاتين الروايتين. وبالفعل، ففي السهول الملينة بالبحر في بلاد ما بين النهرين، حيث ظهرت أسطورة خلق الإنسان من الطين، نجد أن الصين هو ما تتميز به التربة هناك، وهو سواد التي يستحبها البوون والمجاريون، وفي نفس الوقت نجد أن معشنى هذه الأسطورة من اليهود قد اعتادوا على التربة الصلدة في البراري والأنجاد التي يعطيها الحبار الرمل الجاف = العفار العيرة للتراب. وهذه المادة غدت مادة لخلق الناس من خلال التمثيل السومري الأكادي للموروث الملحمي الوارد في رواية الأسفار المقدسة، ومن ثم في الأدب الديني، اليهودية والمسيحية، وفي الفلكلور". وهناك اشارات في شعر ما قبل الإسلام إلى الانتماء لـ "عرق

الثرى". الإشارة الأولى فى شعر امرئ القيس، حيث يقول:
 إلى عرق الثرى وشجت عروقي.. وهذا الموت يسلبني شباني
 ويسمى سوف يسلبني وجرمي. هيلحني وشيكا بالتزراب
 والإشارة الثانية هي شعر الجاهلي مقيم بن دوير، يقول:
 فعدت لباني إلى عرق الثرى.. فدعوتهم فطمت أن لم يسمعوا
 ونحنى عبدة "عرق الثرى" طويلاً لتظهر ذمية في شعر
 الأموي العزدي في قوله:

أما ابن الجبال الشم في عند الحصى وعرق الثرى عروقي فس
 ذا يحاسبه!

وهذا هو شراح الشعر المتأثرين بالإسرائيليات "عرق الثرى"
 كإشارة استعارية عن النبي إسماعيل جد العرب، بينما فهمها
 آخرون كرمز لأنم أبي البشر جميعاً.

على أن دلالة الاستعارة "عرق الثرى" أوسع من هذا المعنى،
 والأغلب أن الاستعارة ذاتها ظهرت على أساس تداعيات أخرى،
 لا يحل فيها. بشكل خاص، دافع الخلق المنعم للإسلام، الذي
 هو أساس في الروايات السومرية والأكادية وروايات الكتاب
 المقدس.

وأهم هذه التداعيات كانت متعلقة بمعنى كلمة "الثرى" التي
 تعني: التربة الرطبة المبتلة، التربة ما تحت الطبقة الأرضية
 المروية بالمياه الجوفية، عور لأرض، التربة الباطنية وهي
 تعود إلى القدم التصورات عن التربة التي تخصب بالرطوبة،
 باعتبارها بيئة تولد كل شيء وأم أصلية لكل شيء حتى بما فيه ذلك
 الإنسان نفسه وهو المعنى الذي أشار إليه الشاعر الجاهلي أمية

من أبي الصلوات المتوفى حوالي ٦٣٠ ميلادية في شعراء:
والأرض معتلنا، وكانت أمنا فيها مقابرنا وهيها تولد
وقوله:

منها خلقنا، وكانت أمنا خلقت ونحن أبناؤها لو أننا شكر
ثم جاءت قصة الخلق في القرآن الكريم لتكفي التصورات
للقبلة البدائية عن أصل الإنسان والمعتمد على الأنساب
المحفوظة في الذاكرة في شكل سميمات لا نهاية لها، ليتحول
بالوعي العرسي إلى الرسم التاريخي الذي يوحد ماضي الجنس
البشري، ووحدة الله خالق البشر والحياة، محتثا تحيرا جذريا في
تدوين تاريخ الإنسانية.



[الاقتباسات من "تطور الوعي للتاريخي عند العرب" بقلم
هريزانيهتش، في دراسات في تاريخ الثقافة العربية، القرون
١٥/٥، دار التقدم موسكو].

(١٠)

الخيال الشعبي وقصص الأبطال

شغل الوجدان الشعبي العربي بقصص الأنبياء، ولم تشبع روايات المؤرخين والإخباريين حاجات هذا الوجدان للروحية، فراح يصيب من تصوراتهم وموروثاته إلى هذه الروايات والقصص التي حفظتها الكتب التاريخية والدينية، متأثراً بالسيرة النبوية، فقد بدأت السيرة كما نعرف بقصص إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، كما بدأت بعض كتب التاريخ كالطبري بقصة إبي البشر آدم وصولاً إلى النبي محمد عليهما السلام، الأمر الذي دفع الوجدان الجمعي إلى الاهتمام بقصص الأنبياء وخاصة أولئك الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم.

ولا تزال المكتبات الشعبية في بعض الدول العربية، تعيد طبع هذه القصص في كتيبات صغيرة ورخيصة الثمن، لتباع في أسواق القرى والأحياء الشعبية، ومن هذه القصص قصة سيدنا إبراهيم^١ وهي هذه القصة كما في غيرها من قصص الأنبياء يستلهم المؤلف الشعبي السيرة النبوية والقرآن الكريم، مستقداً بها في البناء الفني والسرد القصصي لسيرة إبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام فهو يورد بعض تفاصيل الحياة الخاصة لسيدنا إبراهيم كزوج، وأسفاره، وعلاقته بأبنائه، ليربط بينها وبين رسالته الدينية، ولخلق تكاملاً في القصة يصل بدايتها بنهايتها كما يستغل القاص الشعبي المجهول موضوع "الإسراء" المرتبط

بالسيرة النبوية، في سرد بعض أحداث قصة إبراهيم، حيث
 تحكى السيرة النبوية نقلاً عن ابن اسحق ان النبي إبراهيم عندما
 أراد زيارة هاجر زوجته وابنه اسماعيل، في مكة، حملته البراق
 من الشام إليهما "فيقل بمكة ويروح من مكة فبيت عند اهله في
 الشام". وتورد سيرة ابن هشام حديثاً مرفوعاً إلى السيدة عائشة
 رضى الله عنها، تقول فيه: "كان الرسول صلى الله عليه وسلم
 كثيراً ما اسمعه يقول: ان الله لم يقصص نبيا حتى يخبره". ويستعيد
 مؤلف قصة إبراهيم الشعبية بهذا الحديث، فيدير حواراً بين النبي
 إبراهيم وملك الموت الذي جاءه متكرراً، والذي لم يقصص روحه
 الا بعد ان طلب منه إبراهيم ذلك. كما يربط المؤلف الشعبي
 للقصة بين ما ورد في القرآن الكريم وبين سرد أحداثها، فهي
 تصف النبي إبراهيم بأنه النبي الذي تجرى القصة الحلق كلهم
 بتصديقه وتفصيله وتجيئله في كل أمة، مستوحية الآية القرآنية
 التي يدعو فيها إبراهيم ربه بأن يجعل له لسان صدق في
 الآخرين.. وهو النبي إبراهيم المبني بأنواع القبلا، والمشهود
 له بالوفا، استلهاما لقوله تعالى: "واذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات
 فآتمهن" وقوله تعالى: "وابراهيم الذي وفى" وتصفه القصة بـ
 "الفاتن" وبـ "قول من اقام السماك" وقول من صحى، واول من
 اتقى في النار، واول من احيا الله له الموني، واول من هاجر لله،
 كما تصفه القصة الشعبية بـ "الحليم، المبوب، والاواب" وهي
 كلها صفات مستمدة من الآيات القرآنية الكريمة: "ان إبراهيم كان
 امة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين" "وارنا مسكنا" و"رب
 ارنا كيف يحيى الموني قال لو لم تؤمن، قال بلى ولكن ليؤمنن

قلبي" وقوله تعالى: "إن إبراهيم لأواه حليم" وقد أصاب مؤلف السيرة الإبراهيمية المجهول إلى ما استمد من السيرة النبوية والقول الكريم بعض روايات الخيال الشعبي، ليصنع من هذا كله إطاراً قصصياً متكاملًا، يبرر من خلاله قصة سيدنا إبراهيم بما يلتقي ومعتقدات جمهوره، وذواقهم الفنية، مستحكما العديد من العناصر العلية في تجسيد الأحداث ورسم صور الشخصيات، كما يفعل أي قاص محترف، فهو يستعين، مرات بالأحداث التبريحية التي ورثت في كتب المؤرخين وكتب السيرة القدسي، ويؤكد بها بالآيات القرآنية التي تشير إلى قصة إبراهيم وهو يلجأ إلى التحليل الخيالي المستند على الموروث الشعبي العربي والاسمي، هي شرح اشارات القول الكريم القصصية، فحينما يقول القرآن: "وفديناه بذبح عظيم" يعبر القاص وصف عظيم، بأنه كان كبشاً يرضع في الجنة أربعين حريفاً، وهو الكبش الذي قرب هابيل من آدم عليهما السلام إلى الله، وقتله أخوه قابيل من أجله، ولذلك سمي عظيماً... ثم يفعل القاص الشعبي يومى "التزوية وعرفة" في شعائر الحج بقوله ثم رأى إبراهيم عليه السلام في منامه قائلا يقول له: يا إبراهيم إن الله يترك ذبح ولدك، وكان ليلة التزوية. فلما أصبح تروى في منامه، أس الله هذا المنام لم من الشيطان؟ فمن ثم سمي بيوم التزوية. فلما انعمى رأى المنام ثانية، فلما أصبح عرف أن ذلك من الله، فمن ثم سمي بيوم عرفة" ثم يصعد القاص الشعبي الموقف الذي ينتهي فيه إبراهيم لذبح ابنه إسماعيل، حيث يطلب إسماعيل من أبيه أن يكره على وجهه (أي أن يجعل وجهه للأرض) حتى لا ينظر إلى وجهه، وهو يذبحه فيرحمه، وتحول رقة الأب على ابنه بينه وبين تنفيذ أمر الله.

وتنتهي قصة سيدنا ابراهيم الشعبية بموته، ويرسم مؤلفها لقاء سيدنا ابراهيم مع ملك الموت، هكذا: لما نزل الله سبحانه وتعالى قبض روح ابراهيم عليه السلام، ارسل ملكا في صفة شيخ هرم.. فبينما هو يطعم الناس، قد هو شيخ كبير يمشي في الحلوة، فيعرض اليه بحمار فركبه. فلما راه اثناء قدم اليه الطعام، فجعل الشيخ يأخذ التمرة يريد ان يدخلها فاه، فيدخلها مرة في حبه ومرة في آذنه () وكان ابراهيم عليه السلام قد مال للموت. فقال ابراهيم للشيخ حين راي حاله: ما بالكَ يا شيخ تصنع فوجد عمرا يريد على عمر ابراهيم بستين فقال له ابراهيم: انما يبني وبينك ستان، فلما بلغت عمرك صرت مثلك، اللهم اقتضى قبل ذلك اليوم، فقام الشيخ فقص روحه عليه السلام ولا يحمي ما في هذه الفترة من حيرة انسانية، نكره ان يوصلها كبار السن الى تحلل الأعضاء، ووهن الجسم وفقدانه لوطائفه.

كما تشير قصة سيدنا ابراهيم للشعبية في مهابتها الى اتباعه للتقوية الإسلامية، فنقول: في اول من صلى صلاة الصبح هو ادم عليه السلام حين اهبط من الجنة الى الارض ودخل الليل، ولم يكن يعرف الليل قبل ذلك، فحاج حوفا متنبها من الظلمة، فلما انشق الفجر صلى ركعتين شكرا لله تعالى، الركعة الاولى للنجاة من ظلمة الليل، والثانية شكرا لرجوع صوه النهار، فكان ذلك سببا لكونهم ركعتين وفرصت عليه. وأول من صلى الظهر ابراهيم عليه السلام حين امر بدبح ولده صلى لربعا: الاولى شكرا لذهاب عم الولد، والثانية شكرا لبرول الفداء، والثالثة شكرا لرصده الله تعالى حين بهرة النبح، وكان ذلك منه تطوعا، وقد حرص عليه.

موسى وأنبياء التوراة

طلت اليهودية النيلة المساوية الأولى لأكثر من ألف عام، لأن أنبياء بني إسرائيل الذين أتوا من بعد موسى عليه السلام حرصوا على تقويم الشريعة الموسوية مما كانت تتعرض له من تحريف، ويصف ابن الأثير في كتابه "الكامل" هذه العملية بتجديد التوراة. وصورة موسى كمنى تجعله في مستوى متفرد عن الأنبياء الآخرين من بني إسرائيل، ويفسر علماء التاريخ القديم اسم موسى بمعنى "المولود" ولكن رواية التراث العربي يفسرونه على أنه يعنى: "ماء وشجر" إشارة إلى المكان الذي عثر عليه فيه وهو طفل رضيع، على النبل، وترسم الكتب المقدسة صورة موسى الشاب، بأنه قوى قوة عضلية فائقة مكنته من قتل رجل بضربة واحدة، كما أنه استطاع أن يرفع وحده الصخرة الهائلة التي كانت موضوعة على فوهة البئر لكي تسقى بهذا النبي

شعوب إيلهما، الأمر الذي لفت نظر السنين إلى قوته ومروءته، كما دفع النبي شعوب إلى إهدائه عصاته متأكدًا من قدرته على حملها، وكان شعوب لا يستطيع حملها. ويرسم ابن الأثير، بما يورده من أخبار، صورة النبي موسى كما تصوروا أصحاب التراث العربي ورواة سير الأولين، فهو ذو مروءة وحلق عظيم، فعندما دعته ابنة شعوب للقاء ابنها، واجاب دعوتها، جعلها تسيير خلفه لا أمامه، قائلًا لها: "أنا أهل بيت لا ننظر في أعقاب النساء" وعندما وصل بيت شعوب، وقدم له الطعام، رفض أن يأكل، قائلًا لمصاحب البيت: "أنا من أهل بيت لا يأخذ على اليسير من عمل الأحرار، الدنيا بأسرها" ثم هو يستجيب للطعام لحقز أما لعادات شعوب وأهله في الطعام الضيق عندما عرف ذلك.

وعلى عادة الأحيائيين القدامى يورد ابن الأثير أخبارًا أخرى ترسم ملامح تختلف قليلًا عن الملامح السابقة إلى أن يتحلى بها النبي موسى.

أما عن نبوته فتتميز بالتعريب الذي حياه الله به، والذي يتمثل في توجيه كلام الله إليه مباشرة فصلًا عن وساطة الملائكة. وهكذا فعندما لم يقدح ريباد موسى رأى نارا من نور الله معتدة من السماء إلى شجرة عظيمة من العوسج، وعندما اقترب من الشجرة المضراء المتوهجة باللهب، استلذزت عنه فرع ورجع، وهذا نودي: "إن يورك في النر ومن حولها يا موسى" أي ل الله رب العالمين" وعندما هذا وثاب إلى عقله نودي: "أطع بطيك لك بالوادي المقدس طوى" وعاد كلهم الله موسى والناس لا

يقدرّون على النظر إليه، وفي ذلك قبل أنه بقى أربعين يوما ما
راه أحد فيها الأمات، كما قيل ما رآه أحد الأعشى، حتى أنه
جعل على وجهه حذيرة أربعين يوما لم يكشفها لما تغشاه من
النور، أو أنه جعل على وجهه ورائه برصا أربعين يوما لئلا
يرى أحد وجهه".

ويفتح الدكتور سعد رغلول عبد الحميد في دراسته: "الأنبياء
والمؤمنون قبل ظهور الإسلام" موضوعه المنقح والحقاء نور
الوجه في التراث العربي والإنساني، هـ "الأسود المسمى" متبنى
اليمر كن معتما متحمرا ابدا، ولذلك لقب بدى الخمار (القناع)
ويقول عنه ابن الأثير أنه كان مشعبدا يرى قومه الأعاجيب..
كما كن الثائر الحرساني هاشم المروى (١٥٩ - ١٦١ هـ) الذي
ثار على الحليفة المهدي العباسي في بلاد ما وراء النهرين،
والذى كان يؤمن بالناسخ والخلول، وكان يزعم أن روح الله قد
تقصصته، وقد كان يلقب بـ "المنقح" لأنه كان يظهر بالتابعه
مرتديا قناعا مسجوجا من الحيوط الذهبية لكي يظهر انظارهم،
وكان يحبرهم أنه وليس هذا القناع لكي لا يبهرهم بأشراق الأنوار
الإلهية التي لن يطبقوا النظر إليها مباشرة. ولكن حصوم المنقح
من العباسيين صبروا لبسه للقناع بأنه كان أحمر فكان يحفى
عنه بالقناع الذهبي.. وكانت نهايته بعد بأسه من شدة حصار
حصن الحليفة العباسي، أن القى بنفسه في النار واتبعه أهله
وخاصة مريديه، وماتوا جميعا محترقين، وهم على قناعة بأنهم
سيصعدون مع "المنقح" إلى السماء
كما يقال أن أهل الإسكندرية ظلوا يصنعون قطعاً من الحرير

الامبود على وجوههم لمدة سبعين سنة بعد ان بناها الإسكندر
الأكبر، خشية على انصارهم من ان يحطها بياض الزمان
الناصع!



المعجزات الموسوية

هناك معجزات عديدة يسميها رواية التراث لموسى عليه السلام، منها ما ورد في التوراة والقرآن الكريم ومنها ما تناقله رواية الأخبار والقصص ضمن ما تناقلوه من أخبار الأولين مثل النار التي رآها موسى تنبعث من شجرة العوسج الحضراء، وكف مطر الطوفان، وكشف الجراد، والقمل الذي أهلك الررع، وكف الدم الذي تحولت إليه مياه للفراتة طيلة سبعة أيام، ومسح أموالهم حجارة.. إلخ. وقد كان إنخال موسى يده في جيبه، وإخراجها بيضاء من غير سوء لها نور في بياض الثلج، وهي الكرامة التي وردت في القرآن، كما كانت عصاه التي ورد ذكرها في القرآن أيضاً، ذات كرامات عديدة. ويصف ابن كثير عصا موسى بأنها كانت ذات شعبتين وفي رأسها محجن، ولم تكن وطيفتها بالنسبة له مجرد أن يتوكأ عليها

ويهبش بها على غنمه، ويحمل عليها راحه وماء.. بل كانت تنص: له هي الليلة الظماء، كما كان اذا انتهى فاكهة من الفواكه، غرسها في الأرض، فتخرج لها الحصاد تحصل الفاكهة المشتهية. وعندما التقى موسى بالسحرة، تحولت عصاه يمس ربه، إلى حية تسعى، لقت ما صنعه السحرة من اعاجيب، وهو الأمر الذي جعل رئيس السحرة يؤمن بما جاء به موسى ويحر ساجدا هو ومن معه من السحرة أجمعين.

وهي عصا موسى التي صوب بها البحر الأحمر، ففلقته، فكان كل فرق كطود الحظيم، وفتح فيه اثني عشر طريقا لكل سبط من قومه طريق، ثم انتظم البحر على فرعون ومن معه فاغرقهم.. وهي العصا التي صوب بها المحجر فانفجرت منه اثنا عشرة عينا لكل سبط عين.

كما ينسب إلى النبي موسى معجزة احياء الموتى، وكأنه المسيح عيسى بن مريم، ويقول ابن الأثير في روايته أن رجلا قتل رجلا وادعى أن غيره هو القاتل، وعندما احتكموا إلى موسى ليصل في القضية امر بديح بقرة صفراء فاقع لونها، وامر بصوب القتل بلسانها، فبعث حيا وارشد عن قتلته ثم مات، وقيل أن الهدف من دبح البقرة الصفراء فاقعة الاصفرار، كان احراق لحمها وجلدها، ليستحتم رماد الحريق في تطهير الماء الذي يستخدم للطهارة

ويروي المؤرخون القدماء آخر كرامات النبي موسى، والخاصة بفتح مدينة اريحا على الجبارين من الكنعانيين، بعد ان قتل حصونه طوال النهار، وقاربت الشمس الغروب، وخاف

موسى أن يتركهم الليل فيصرون عليه دعا ربه أن يحبس عليهم الشمس فحبسها عليهم حتى استأصلهم، ودخل موسى المدينة فأقام بها إلى ما شاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله إليه، ولا يعلم أحد من الخلق مكان قبره، كما يقول ابن الأثير ويشير الدكتور سعد رطلول عبد الحميد في دراسته المسماة الإشارة إليها، أن مؤلفي "النبوة رولان" وهي الأندلس للملحمية الشعبية الفرنسية والتي يرجع تاريخها إلى القرن الحادي عشر الميلاد، ترد بها قصة حبس الشمس، وإن كان مؤلفو الأندلس يوظفونها كما هو معروف لتعجيد عرو الملك الفرنسي شارلمان لفتح الأندلس، فترة حكم المسلمين لها (١٦١ هـ - ٧٧٨) بعد أن فاجأ المسلمون جيش شارلمان، في جبال البرانس، بعد عودته من مدينة مرسطة الإسلامية، تمكن شارلمان من الثأر لمقتل الكونت رولان. ولما كانت الشمس قد قاربت على الغروب كما تقول الملحمية الشعبية الفرنسية، فإن شارلمان المقدس، الذي بشر المسيحية بين قبائل الجرمان البدائية الأوروبية، دعا الله أن يوقف الشمس فوق الأفق، فاستجاب الله لدعاء الملك القديس، فلم تغيب الشمس إلا بعد أن حقق النصر الكامل على خصومه المسلمين. "هذا ولا بأس أن تكون كرامة شارلمان القديس صدى لكرامة موسى التي تسبها رواية أخرى في النبي يوشع، الذي خالف موسى بعد أن كان من أتباعه حيث يشير ابن الأثير وابن خلدون إلى أن يوشع هو الذي أتركه السماء ليلة السبت فدعا الله أن يرد الشمس، فرد فهرم يوشع للجبارين ودخل مدينتهم، وجمع غنائمهم ليأخذها كغريبان.

ومهما يكن من أمر فإن النظر إلى المعجزات والكرامات التي
تنسب إلى الأنبياء السابقين على دعوة خاتم الأنبياء والمرسلين،
تظل جزءا حيا من التراث الإنساني المقدس، الذي يرى في
النبوة تكريما للهيا يرتبط بالوحي والإلهام الذي يهبه الله لمن
يحتازره من البشر.



تعرضت بعض كتب التاريخ والتراث لما سمي في العهد القديم
(التوراة) بالوصايا العشر، فقد ذكر ابن الأثير ثلاثة منها فقط،
كما أورد ابن عسدي في "المعتمد الفريد" بعض ما أوحى به إلى
موسى، ومنها قوله تعالى: "يا موسى أنت عبدى، وأنا الملك
النهاس، لا تستكمل الفغير، ولا تعبط العبي بشئ يسير، وكفى عبد
ذكرى خائفا".

وقد أورد اليعاقبي، في تاريخه، وهو سابق على ابن الأثير،
الوصايا كاملة وهي:

- أنى أنا الرب.. لا يكون لك إله آخر دونى.
- تقمى على مخصصى، وتعمى لمعصى.
- لا تحلف باسم الرب كذبا.
- اذكر يوم السبت لتطهره، سبت الرب إلهك لا تعمل فيه شيئا
من الأعمال.
- أكرم أباك وأمك لتطول إيامك فى الأرض.
- لا تقتل.

- لا تزي - ويصيف ابن الأثير في رويته (من رمى ولم يزل له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجماه حتى يموت).
 - لا تسرق، ويصيف ابن الأثير، (من سرق قطعناه).
 - لا تشهد على صاحبك شهادة كاذبة.
 - لا تثبت بيت صاحبك، ولا روجة صاحبك، ولا عيده ولا أمته ولا حمارة ولا ثوراه، ولا شينا من مال صاحبك.
 "هنا ولا باس، من الإثمارة إلى ما أوصى به النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأمته حيث ينصب إليه قوله "أوصاني ربي بتسع، وأنا أوصيكم بها" (أوصاني بالإخلاص في السر والعانية، والعدل في الرضا والغضب، والقصد في العنى والفقر، وإن أعوز عن ظمسي، وأعطى من خزني، وأصل من قطعني، وأل يكون صمتي فكرا، ونطقي ذكرا، ونظري عمرا) وهكذا تستمر التقاليد الجميلة الأمر أهمية حية بفصل سلسلة الأنبياء حتى موسى، قيل من نعل الدعوة المحمدية على تجديد، ولحياتها بشكل نهائي في الإسلام، فكما كان لموسى الكليم وصياها العشر، كان لمحمد الأمين وصاياها التسع، كما لو أن العرب الإسلامي".

(د. سعد زغلول عبد الحميد - مرجع سابق).
 هذا ويرى كثير من الباحثين وعلماء الآثار الغربيين أن الديانة المصرية القديمة التي عرفت بالبعث والحساب، والعقوبة والثواب، طرحت - عبر التعاليم الإحصاتونية - فكرة التوحيد، كما أن أرض مصر عرفت العديد من الأنبياء لأصحاب الرسالات كإبراهيم الذي أقام بها رسا وتزوج منها هاجر أم ولده اسمعيل

أبى العرب، ويوسف الذى خدم فى الإدارة المصرية ومات فيها
ودفن على ضفاف نيلها، وأصبح تابوته، فيما بعد، شعار بنى
"إسرائيل" فى حروبهم. ومن هنا يرى هؤلاء الباحثون أن الديانة
المصرية كان لها تأثيرها، فى تلك الرسائل التى نلتها، كما
يرى البعض أن موسى يمكن أن يكون أميراً مصرياً!



هوامش ومراجع

- ١- التراث القصص في الأدب العربي الدكتور محمد رجب القنطار.
- ٢- سيرة ابن هشام.
- ٣- الأنبياء والمتنبئون قبل ظهور الإسلام الدكتور سعد زغلول عبد الحميد. في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر - المجلد الثاني عشر ١٩٨٢.
- ٤- دراسات في العصر الجاهلي تأليف أحمد أبو الفضل المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية القاهرة ١٩٦٧.
- ٥- القرآن والتاريخ الدكتور عبد العزيز كامل في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر المجلد الثاني عشر ١٩٨٢.
- ٦- تطور الوعى التاريخي عند العرب، القرون ٦- ٨ - بقلم هرياز نيغتش. في: دراسات في تاريخ الثقافة العربية القرون ٥- ١٥- دار التقدم موسكو ١٩٨٩.]
- ٧- السيرة النبوية بين التاريخ والتراث الشعبي الدكتور نبيلة إبراهيم. في: القرآن والسيرة النبوية عدد خاص من عالم الفكر المجلد الثاني ١٩٨٢.
- ٨- محمد... سيرة حياة نبي تأليف كارين لومسترونج

-
- ترجمة د. فاطمة نصر والكتور محمد عدلى
مطبوعات سطور. القاهرة ١٩٩٨.
- ٩- عرائس المجائس تأليف أبى إسحق أحمد بن محمد بن
إبراهيم النيسابورى، المعروف بالثعلبى. القاهرة.
- ١٠- الفلكور فى العهد القديم تأليف سير جيمس فريزر
ترجمة د. نبيلة إبراهيم القاهرة.
- هذه بعض المراجع إضافة إلى ما ورد من إشارات لمراجع
أخرى فى متن المقالات، فمادة موضوع القصص النبوى شديدة
الغنى فى المكتبة العربية قديما وحديثا.

رقم الإيداع: ٢٠٠١/١٣٣٥٧
التسجيل الدولى: 077-01-7413-0



من العلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لي طويلة أم
مطلقة ولكن الأهم أن العلم أصبح واقعاً ملموساً عبقاً يذائر
ويؤثر، وهكذا كتبت مكتبة الأسرة تجربة مصرية مصممة بالجهود
والشراكة والتطوير، خرجت من حدود العلية وأصبحت باعتراف
منظمة اليونسكو تجربة مصرية مقلدة تستحق أن تشترك في كل
دول العالم الثامن وأستحق انتشار التجربة ومحاولة تجميعها في
دول أخرى، كما أستحق كل السعادة احتضان الأسرة المصرية
واحتفالها والتظاهرة وتلقيها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال
الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع قنبلاً ثقافياً له مضمونه وشكله
فدأ به الليل، ورغم اهتماماتي الوطنية المشددة في مجالات
كثيرة أخرى إلا أنني أعتزم مهرجان القراءة للجميع ومكتبة
الأسرة هي الإبن البكر، ويحتاج هذا المشروع كل سبيل قريباً قريباً
من المشروعات الأخرى.

ومازالت فاعلية التثوير تواصل إشباعها بالمعرفة الإنسانية،
تعيد الروح للكتاب محسناً آفاقها وحرارة التفاتة، وتوالت
مكتبة الأسرة، إصداراتها للمقام الثامن على التوالي، تضيق
دائماً من جواهر الأبداع الفكرى والفن والادب وترسخ على
مدى الأيام والمستويات زاناً ثقافياً أعلى وعشوائى ومروئى أهل
مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك

مطابق الهيئة المصرية العامة للكتاب



مكتبة الأسرة 2001
مهرجان القراءة للجميع

قرشاً ١٥٠